



سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

وَقَفَاتٌ وَهَدَايَاتٌ



جمع وترتيب

د. خَالِدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَاتِلِيُّ



منصة بناء العلمية

تأصيل وتسهيل

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

وَقَفَاتٌ وَهَدَايَاتٌ

د. خَالِدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَاتِلِيُّ

جميع الحقوق محفوظة لمنصة بناء العلمية.
ويُسمح بتداوله ونشره للأغراض الدعوية، بشرط عدم
الزيادة أو الحذف.
النشرة الثانية - شوال ١٤٤٧ هـ

منصة بناء العلمية
تأصيل وتسهيل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..
فإن العلم حياة القلوب، ونور البصائر، وأفضل العلم: العلم
بكتاب الله سُبحانه وتعالى، الهادي إلى أقوم طريق في العقائد والعبادات
والسلوك، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].
ثم إن مما يحفز ويُبشِّر: أن مدارسَ معاني القرآن علامةً من
علامات الخيرية.

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خَيْرُكُمْ
مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» [أخرجه البخاري (٥٠٢٧)].

يظنُّ بعض الناس أن هذا الحديث في تعلُّم ألفاظ القرآن
وتعليمها فقط، والواقع أن الحديث يشمل الأمرين: الألفاظ،
والمعاني، بل المعاني أولى.

قال الإمام ابن القيم رحمته الله: «وتعلُّم القرآن وتعليمه يتناول
تعلُّم حروفه وتعليمها، وتعلُّم معانيه وتعليمها، وهو أشرف
قسمي تعلُّمه وتعليمه؛ فإنَّ المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة
إليه» [«مفتاح دار السعادة» (١/٧٤)].

فنحن هنا نتعلم ونتدارس معاني القرآن، ونرجو أن نُتَّوَجَّ بتاج
الخيرية.

وقبل الكلام على النصاب الأول من السورة، ربما يقول قائل:
لماذا بدأنا بسورة الكهف؟

والجواب: وَقَعَ الاختيار على سورة الكهف لأسباب:

١ هي السورة التي نقرؤها كل جمعة - وأغلبنا يحفظها بإتقان -؛
فلا بُدَّ أن تكون قراءتنا لها بالتدبر والتفهم.

٢ هذه السورة ترسم منهج التعامل مع الفتن:

الفتنة في الدين: (قصة أصحاب الكهف)، فتنة الصاحب
والجليس: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَيَّةِ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:
٢٨]، فتنة الدنيا - المال والولد - (قصة صاحب الجنتين)، فتنة
العلم: (قصة موسى والخضر)، فتنة السلطة والمنصب: (قصة
ذي القرنين).

فتنٌ متنوعة، فلا عجب أن كانت هذه السورة عاصمةً من
أعظم الفتن.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ
الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ» [أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٩)].

ففي خِصَمِ هذه الدنيا وما فيها من فتن ومكِدِّرات، وصوارفَ وملهيات، نحن بحاجة أن نأوي إلى كهف يُظَلُّنا، فكانت سورة الكهف هي ذلك الكهف الذي نأوي إليه في كلِّ أسبوع سائلين الله أن يؤتينا من لدنه رحمة، ويهيئ لنا من أمرنا رشداً، ويعيدنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

٣ هي سورة قَصص، والقَصصُ مُحَبَّبة إلى النفس، فيها قصص: أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وأدم وإبليس، وموسى والخضر، وذو القرنين.

وسيكون منهجنا بتقسيم السورة إلى مقاطع، ثم الكلام على كل مقطع في وقفات، وهي وقفات هدايات وتأملات من وحي السورة، وليس تفسيراً لها بالمعنى الاصطلاحي للتفسير. نسأل الله الفقه في كتابه، والعمل به، والدعوة إليه على بصيرة، والصبر على ذلك كله .. آمين

المقطع الأول

من أوّل السورة، إلى قول الله سُبحانهُ وتعالى:

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ

عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].



امسح الرمز

أو اضغط

للاستماع



المقطع الأول

- ١ الوقفة الأولى:
الحمد لله
- ٢ الوقفة الثانية:
أوصاف القرآن
- ٣ الوقفة الثالثة: تنزيه
الله عن النقائص
- ٤ الوقفة الرابعة: العبرة
بالعمل دون الأثر
- ٥ الوقفة الخامسة:
التحذير من فتنة الدنيا
- ٦ الوقفة السادسة:
قصة الكهف
- ٧ الوقفة السابعة: التدرُّب
على تنمية ملكة الاستنباط
- ٨ الوقفة الثامنة: توجيه
الاستدلال

الوقفة الأولى: الحمد لله

الحمد: هو وصفُ المحمود بالكمال، مَحَبَّةٌ وتعظيمًا. وهو بخلاف المدح الذي لا يلزم معه المحبة والتعظيم، فقد يمدح الإنسان شخصا وهو يبغضه لكن طلبا لمنفعة، أو خوفا من مضرة. وافتتح الله كتابه بالحمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وافتتح خمس سور بالحمد (الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر). واستحقاق الحمد فيها جاء على جليل الأمور وعظيمها: من إثبات الربوبية، والخلق، وإنزال القرآن، وتمام الملك والتدبير. ومن أسمائه - تعالى -: الحميد.

الفائدة المسلكية هنا: أن نكثر من حمد الله - تعالى -، ف«الْحَمْدُ لِلَّهِ تَمَلُّا الْمِيزَانَ» [أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣)]، كما قال رسول الله ﷺ.

الوقفة الثانية: أوصاف القرآن

قال الله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

جاء في هاتين الآيتين وصفان للقرآن:

١ أن القرآن مستقيم غاية الاستقامة، لا عِوَجَ فيه.

٢ أنه نذير وبشير.

وقوله - تعالى - : ﴿لِيُنذِرَ﴾ يحتمل أن تعود على الكتاب أو على عبده ﷺ، وكلاهما صحيح من حيث المعنى. لكن السياق يشير إلى عَوْدِهِ على الكتاب، فهذا القرآن ينذر الكافرين والعصاة، ويبشر المؤمنين.

الفائدة المسلكية هنا: أن نلزم هذا القرآن ونهتدي به؛ لأنه قيّم لا عوج فيه، وأن نسعى في تحقيق الإيمان والعمل الصالح؛ للفوز بالأجر الحسن، والنعيم الأبدي.

الوقفة الثالثة: تنزيه الله عن النقائص

التسبيح معلّم ظاهر في الدين، وهو ذكرٌ عظيم، ومعناه: تنزيه الله عن كلّ نقصٍ وعيب.

ومن أعظم النقائص والعيوب، وأنواع الكفر: نسبة الولد إلى الله - تعالى -!

قال الله - تعالى - : ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤-٥]. فنسبة الولد إلى الله فرية عظيمة، وكلمة شنيعة، أبطلها الله بأشدّ العبارات في كتابه.

وقال - تعالى - : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ﴾ [٨٩] تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۗ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ﴾ [مريم: ٨٨-٩٢].

هذه الكلمة اشترك فيها: اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وبعض المشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

فهؤلاء أطلقوا هذا الكذب بلا علم عندهم، ولا عند آبائهم.
وجاء إبطال هذا القول من ثلاثة أوجه:

- ١ أنه قولٌ لا دليل عليه.
- ٢ تعظيم هذا القول واستشناعه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.
- ٣ الحكم بأنه كذب بأسلوب النفي والاستثناء: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

الفائدة المسلكية هنا: أن نعظم ربنا في قلوبنا، ونلهج بالتسبيح والتنزيه له.

الوقفة الرابعة: العبرة بالعمل دون الأثر

هذه قاعدة دعوية، ترشدنا أن نهتم بالعمل بنشاط وهمة، ولا تؤثر علينا النتائج. فحينما تسلك عملاً دعويًا كتعليم قرآنٍ أو علم أو نشر للخير، فالنتائج قد تكون:

- مُمِهْرَةٌ، فهذه تسرُّ ولا تغرُّ. احمد الله، ولا تعجب بعملك.
 - محبِطَةٌ، فلا تُقْعِدْكَ عن العمل، ولا تقتل نفسك غمًّا وهمًّا وأسفًا.
- قال الله - تعالى -: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، أي: لعلك مُهْلِكُ نَفْسِكَ حَزَنًا وَأَسَفًا إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ، فلا تفعل، فليس عليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ. وقال - تعالى - أيضًا: ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

إن الغمَّ والأسف الذي يجده بعض الدعاة حينما يرى ضعف أثر

دعوته؛ ينعكس سلبيًا على مهمته، حيث تضعف قواه، وتتأثر نفسيته، فيفقد الدافع والمحرك للعمل.

فمثلاً: حينما تبدأ في حلقة تعليم ثم لا ترى إقبالا، أو ترى ضعفاً وعدم حماس، أو حينما لا ترى تفاعلاً مع منشوراتك الدعوية = فلا تُهلك نفسك حزناً وأسفاً، فأنت تعمل لله، والله يراك ويعلم عملك، ويريد منك أن تعمل، وليس عليك النتائج.

مَكَثَ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ،
ويأتي النبيُّ من أنبياء الله يوم القيامة وليس معه أحد!
فمقياس النجاح عندنا ليس بالأثر الظاهر، وإنما نحن مطالبون بالعمل، والنتائج ليست إلينا.

الفائدة المسلكية هنا: أن نعمر أوقاتنا بالعلم والعبادة والدعوة،
والنتائج أمرها إلى الله.

الوقفه الخامسة: التحذير من فتنة الدنيا

من منهج القرآن الذي يحسن أن نتلمسه ونحن نتلو الآيات: تصحيحُ منهج النظر والفكر. قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧-٨].
كل ما تراه من زينة وجمال وبهجة وزخرف، أبراج وأسواق وقصور، سيارات وطائرات، مجوهرات وتُحف وأجهزة، وغير ذلك، كله سيفنى ويذهب، وتصير الأرض جرداء.

كلُّ هذا امتحان وابتلاء، مآله إلى الزوال والفناء.
تأتي هذه الآية تمهيداً لقصة أصحاب الكهف لتصحیح القيم والمبادئ،
لتقول لنا: كهفٌ مظلم في جبلٍ موحشٍ مع الإيمان؛ خيرٌ من قصرٍ مشيدٍ
فاخرٍ مع الكفر والضلال.
هكذا يُصنع الوعي، وهكذا يُهدَّب الفكر والنظر.

الوقفة السادسة: قصة الكهف

جاءت القصة مرتين، إجمالاً ثم تفصيلاً.
الإجمال في أربع آيات، قال الله - تعالى -: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ
وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ
لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا
۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝﴾ [الكهف: ٩-١٢].
ثم جاء التفصيل بعدها مباشرة، بدءاً من قوله - تعالى -: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ۝﴾ [الكهف: ١٣].

🌟 وقصص القرآن أحسن القصص. وهي قسمان:

١ قصص الأنبياء.

٢ قصص غير الأنبياء، ومنها قصة أصحاب الكهف.



ومن الدروس والعبر في هذه القصة:

أولاً: دينك أعزُّ ما لديك.

فهؤلاء الفتية تركوا حياة المدينة والراحة، ولجؤوا إلى كهف مظلم في جبل موحش، فرارا بدينهم، وصيانة لعقيدهم وإيمانهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» [أخرجه مسلم في صحيحه (١١٨)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «خَالِطِ النَّاسَ، وَدِينَكَ لَا تَكَلِمَنَّه»^(١).

ثانياً: نعمة الربط على القلب.

الربط على القلب نعمة عظيمة، ومددٌ من الله - تعالى -، وقد ورد في القرآن ثلاث مرات^(٢).

ومعناه: تقوية القلب بالصبر والثبات، والسكينة والطمأنينة.

فهؤلاء الفتية ربط الله على قلوبهم، وأمدهم بمدده وعونه.

وبعض الناس يصاب بكربٍ ومصائبٍ شديدةٍ في حياته، لكن ينزل الله عليه الثبات والصبر، ويفيض على قلبه الطمأنينة والرضا، وهكذا يكون الربط على القلب.

(١) أخرجه وكيع في الرُّهد (٥٣١)، بإسناد صحيح، وعلقه البخاريُّ في صحيحه (باب الانبساط إلى الناس، ٣٠/٨)، مجزوماً به.

(٢) الموضوعان الأخران - في غير سورة الكهف - في قول الله - تعالى -: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَتُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، وقوله - تعالى -: ﴿إِذْ يَعْشِقُكُمُ النَّعَّاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وهو لطفٌ من الله اللطيف، كيف صار الكهفُ الموحش القفرُ فضاءً ورحمة وراحة!

ثالثاً: تقرير الألوهية بالربوبية.

وهذا أسلوب قرآني في تقرير توحيد العبادة. وشاهدُه في قول الله - تعالى :- ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

رابعاً: التعلق بالله وحسن الظن به.

وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان، تأمل قولهم: ﴿فَأَوْدَأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]، وقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

إن هذا درس ورسالة لكل مكروب، ومُضَيِّقٍ عليه في دينه، وغريبٍ في بلده وبين أهله أن يتوجه إلى ربه في ضراعة مع إخبارات، وابتهاال مع إقبال: أن ينشر له رحمته، ويوسع عليه ضيقه، ويفتح له أبواب الخير والنفع والفرج.

أَلَا فَاصْبِرْ عَلَى الْحَدَثِ الْجَلِيلِ وَدَاوِ جَوَاكِ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ
وَلَا تَجَزَعْ فَإِنْ أُعْسِرْتَ يَوْمًا فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَظُنَّنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ^(١)

خامساً: لطف الله وكرامته بأوليائه.

وظهر هذا في عدة أمور ومشاهد من القصة، من أعظمها هذه الكرامة العظيمة بهذه النومة الطويلة، وما هيأ لهم من الأسباب في حفظهم وصيانتهم.

(١) «الفوائد المنتقاة والغرائب الحسان» (ص: ٥٣)، والأبيات تنسب لعلي بن أبي طالب عليه السلام.

وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ
وَكَمْ يُسْرَأَتِي مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ
وَكَمْ أَمْرٍ تَسَاءَ بِهِ صَبَاحًا
إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْأَحْوَالُ يَوْمًا
يَدِيقُ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذِّكْرِ
فَفَرَجَ كُرْبَةَ الْقَلْبِ الشَّجِيِّ
وَتَأْتِيكَ الْمَسْرَّةُ بِالْعَشِيِّ
فَثِقْ بِالوَاحِدِ الْفَرْدِ الْعَلِيِّ^(١)

سادسا: الأخذ بالأسباب.

حيث فروا بدينهم، ولجأوا إلى كهف يؤويهم، ولم يواجهوا قومهم لعدم قدرتهم على ذلك.

سابعا: الاستناد على العلم والبرهان.

وهذا منهج قرآني سلفي، يظهر هنا في قول الله - تعالى -: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: ٤ - ٥]، وقوله - سبحانه -: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

فوطن نفسك - يا طالب العلم - أن تبرز^(٢) إلى الكتاب والسنة، وتنهل منهما، وإياك أن تقدم عليهما رأيا فقهيا أو بحثا جدليا أو خيالا صوفيا أو تناقضا كلاميا فلسفيا.



(١) «معجم الأدباء» (٣ / ٩٩٦)، والأبيات للحسن بن محمد بن الحسن بن حبيب.

(٢) أَرَزَّ إِلَى الْمَكَانِ: لَجَأَ إِلَيْهِ. ينظر: «لسان العرب» (٥ / ٣٠٥).

الوقفه السابعة: التدرّب على تنمية ملكة الاستنباط

نرى أن الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ استنبط سبع فوائد من آيتين، من قوله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، إلى قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

والاستنباط: استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح. وهذه ملكة يفتح الله بها على من يشاء من عباده، ولها أسباب، منها: التدرّب والممارسة، ومنها: معرفة أنواع الدلالات، وإحكام علوم اللغة وأصول الفقه.

الوقفه الثامنة: توجيه الاستدلال بقوله تعالى:

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

هذه مسألة إثرائية؛ فإنّ هذه الآية من أشهر أدلة القبوريين، ووجه الدلالة فيها - عندهم -: أن قوله -تعالى-: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، معناه: لنتخذنّ على قبرهم مسجدا للعبادة. وشرع من قبلنا شرع لنا، وقد حكاه الله - تعالى -، ولم يعقبه بما يدل على رده وإنكاره، مما يدل على رضا الله وإقراره لعملهم.

والجواب على هذه الشبهة من وجهين:

١ على التسليم بأن شرع من قبلنا شرع لنا، فهو مقيد بما إذا لم يرد شرعنا بخلافه، وقد جاء شرعنا بإبطال ذلك في نصوص كثيرة، فيها:

النبي واللعن والحكم بأنهم شرار الخلق يوم القيامة، أعني: من اتخذ القبور مساجد.

❁ لا يُسَلَّمُ بأن ذلك شرع لهم - أيضا-؛ إذ ليس في الآية دلالة على أن ذلك المذكور كان شرعاً لهم، بل غاية ما في الآية أن جماعة من الناس قالوا: ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، وليس في الآية تصريح بأنهم كانوا مؤمنين. وعلى التسليم بأنهم مؤمنون، فلا يلزم أنهم كانوا صالحين يقتدى بهم.

بل جعل ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية دليلاً على المنع، فقال: «وقد دلَّ القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث، وهو قول الله - عز وجل - في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، فجعل اتخاذ المساجد على القبور من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يُشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسوله من الهدى» [«فتح الباري»، لابن رجب الحنبلي (٢/٣٩٧)].

وجاء ذلك بعد قوله - تعالى -: ﴿إِذِ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، فهناك تنازع بين طرفين، ولا بُد في التنازع من الاختلاف والانقسام.



المقطع الثاني

من قول الله - تعالى - : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ
كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، إلى قوله - سبحانه - :
﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ
مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].



امسح الرمز
أو اضغط
للاستماع



المقطع الثاني

- ١ الوقفة الأولى:
الانشغال بالعلم النافع
- ٢ الوقفة الثانية: التحرُّز
في الاستفتاء
- ٣ الوقفة الثالثة: تعليق
الأمر المستقبلة بالمشيئة
- ٤ الوقفة الرابعة: الله ولي
الذين آمنوا
- ٥ الوقفة الخامسة: القرآن
زاد المؤمن
- ٦ الوقفة السادسة:
الصحة الصالحة
- ٧ الوقفة السابعة: الغفلة
بوابة الضياع

الوقفة الأولى: الانشغال بالعلم النافع

ذكر الله عن بعض الخائضين في قصة أصحاب الكهف أنهم اختلفوا في عدد أصحاب الكهف، فقال بعضهم: «ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ»، وقال آخرون: «خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ»، وقال قوم: «سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ»، وتطلب بعض من تكلم عن القصة تفصيلات لا فائدة منها: كلون كليهم، ونوع طعامهم، وغير ذلك من الأمور التي أُهملت، ولا فائدة من معرفتها.

الفائدة المسلكية هنا: أن نشغل بالعلم النافع.

ولكن ما هو العلم النافع؟

الجواب: الكتاب والسنة، بضبط نصوصهما وفهم معانيهما، والاستعانة على ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أهل العلم والدين.

فمن وُفِّقَ لذلك بإخلاص وصدق، ثم اجتهد في العمل بعلمه، وسعى في بثِّ هذا العلم ونشره = فقد ارتقى مرتقى عظيما في الدين.

وليس العلم بكثرة الكتب، ولا بالشهادات، ولا بالألقاب.

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ تَعَلَّمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ الَّذِي يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ»^(١).

قال ابن المبارك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا أَعْلَمُ بَعْدَ النَّبُوَّةِ دَرَجَةً أَفْضَلَ مِنْ بَثِّ الْعِلْمِ»^(٢).

(١) «حلية الأولياء» (٩٣/٦).

(٢) «شعب الإيمان» (٢٦٣/٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «من تعلَّم العِلْمَ الذي بعث اللهُ به رُسُلَهُ وَعَلَّمَهُ لوجه الله كان صِدِّيقًا»^(١).

وأشارت الآية إلى مَعْلَمٍ من معالم الطرح العلمي، وهو الجِدال في العِلْم. والجِدال والجَدَل: منازعة الخصم للتغلب عليه^(٢). وينقسم الخصام والجِدال في الدِّين إلى قسمين: الأول: جدال محمود:

وهو كل جدال أَيْدَ الحَقِّ أو أوصل إليه، بنية خالصة وطريق صحيح. ويكون بالحسنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تُجَدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذا النوع مأمور به: إِمَّا وجوبًا، وإِمَّا استحبابًا، بحسب الحال؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن أمثلته: مجادلة ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا للخوارج، حيث رجع منهم عدد كبير^(٣).

الثاني: جدال مذموم:

وهو كل جدال خالف الصواب في مقصده أو طريقته. كمن يجادل؛ نُصرةً للباطل، أو انتصارًا للنفس، أو على غير عِلْمٍ وبصيرة، فهذا قبيحٌ منهيٌّ عنه؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧١/٢٨).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٠٣/١١).

(٣) ينظر: «السنن الكبرى»، للنسائي (٨٥٢٢)، و«المستدرک»، للحاكم (٢٦٥٦).

وقال تعالى - هنا -: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا﴾ [الكهف: ٢٢].

أي: فلا تجادل - في عددهم، ولا في غيره من أحوالهم- أهل الكتاب ولا غيرهم إلا جدالاً ظاهراً لا عمق فيه، بأن تقتصر على ما جاءك من الوحي فيهم.

والاسترسال في الجدل العلمي المذموم تراه اليوم في عالم «الإنترنت» ومواقع التواصل التي أتاحت الكتابة والكلام لكلِّ مَنْ هبَّ ودبَّ. ومن آفات هذا الجدل العلمي المذموم:

١ تضييع الزمان الشريف في ما لا فائدة فيه.

٢ إثارة الإحن والحزازات في النفوس، وتعمُّر صفاء المودَّة بين الإخوان. فكثيراً ما يحصل نقاش بين بعض الأصحاب، لكن يخرج النقاش عن مسار الحوار الهادئ إلى جدال ترتفع فيه الأصوات، فيحضر الشيطان، ويتفرق الحضور بنفوس غير التي دخلوا بها.

ويُذكَر عن سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: «يا بني، إياك والمرء؛ فإن نفعه قليل، وهو يهيج العداوة بين الإخوان»^(١).

الفائدة المسلكية هنا: أن ننشغل بالعلم النافع، وندع ما لا فائدة منه، فالإسلام يصون العقل أن تهدر طاقته، ويُشغَل فيما لا فائدة فيه.

وإذا احتاج الأمر إلى نقاش فليكن فيما يفيد، وبأسلوب حسن.

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٠).

الوقفة الثانية: التحرز في الاستفتاء

الفتوى: بيان الحكم الشرعي. وهي توقيع عن الله سبحانه وتعالى، فمقامها خطير.

ونقرأ هنا أن الله - تعالى - قال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، ﴿فِيهِمْ﴾، أي: في أهل الكهف. و﴿مِنْهُمْ﴾، أي: من أهل الكتاب، أو من غيرهم.

الفائدة المسلكية هنا: أن نتحرى ونتأني عندما نستفتي في أمر يعرض لنا من أمور الدين.

فإن المرء إذا أراد أن يبني بيتاً بحث عن المهندس الحاذق، وإذا أراد أن يعالج مرضه بحث عن الطبيب الحاذق، وإذا أراد أن يصلح سيارته بحث عن العامل المتقن لعمله، أليس الدين أولى وأهم؟! ما أحسن قول محمد بن سيرين رحمته الله: «إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم»^(١).

وقال الشاطبي رحمته الله: «المفتي قائم في الأمة مقام النبي ﷺ»^(٢). فمن انتصب لهذه المهمة وهو غير مؤهل؛ فقد عرض نفسه وغيره لخطر محقق.

قال الشيخ ابن سعدي رحمته الله عند هذه الآية ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ﴾

(١) «صحيح مسلم» (١٤/١).

(٢) «الموافقات» (٢٤٤/٤).

أَحَدًا»: «فيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إمَّا لقصوره في الأمر المُستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجّزه. وإذا نُهي عن استفتاء هذا الجنس، فمنهيه هو عن الفتوى، من باب أولى وأحرى»^(١).

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: «ينبغي للإمام أن يتصفَّح أحوال المفتين، فمن صلح للفتيا أقرّه، ومن لا يصلح منعه ونهاه وتوعَّده بالعقوبة إن عاد»^(٢). وذكر ابن القيم - في أعلام الموقعين - عن شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنه كان شديد الإنكار على هؤلاء، فاعترض عليه أحدهم، وقال: أُجِعلت محتسبا على الفتوى؟ فقلت له: يكون على الخبّازين والطبّائين محتسبًا ولا يكون على الفتوى محتسبًا؟!^(٣).

الوقفه الثالثة: تعليق الأمور المستقبلية بالمشيئة

هذا أدب من آداب العبد مع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «فمنى الله أن يقول العبدُ في الأمور المستقبلية: إني فاعل ذلك غدا، من دون أن يقرنه بمشيئة الله؛ وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيوب المستقبلية، التي لا يدري العبد هل يفعلها أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٧٣).

(٢) «آداب الفتوى والمفتي والمستفتي» (ص: ١٧).

(٣) «أعلام الموقعين» (٤/١٦٧).

استقلالاً، وذلك محذور ومحذور؛ لأن المشيئة كلها لله، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه»^(١).

وبيان هذه المسألة أنّ إخبار المرء عن الحدث لا يخلو من صورتين:

الأولى: أن يكون الحدث قد وقع.

وهذا لا يخلو من حالين:

١ أن يكون من أمور العادات: فلا يُخبر عن ذلك بتعليق المشيئة (إن شاء الله)، فلا يقال: اشتريت سيارة إن شاء الله، وزرت صديقي إن شاء الله، وأكلت الغداء إن شاء الله؛ لأنه حصل وعلمنا أنّ الله شاءه. لكن يصحُّ أن يُربط ذلك بالمشيئة من باب التعليل، فتقول: اشتريت سيارة بمشيئة الله؛ لأنه لا يكون شيء في هذا الكون إلا بمشيئته وقدرته وإرادته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٢ أن يكون من أمور العادات: فهذا يصح فيه الاستثناء وعدمه.

فإن قصد مجرد الفعل فلا حاجة للاستثناء، تقول: صليت الظهر، وطُفت طواف العمرة، ونحو ذلك، بمعنى أن ذلك الفعل حصل وانقضى. وإن قصد القبول والتمام؛ فيعلق بالمشيئة، تقول: أدّيت الحجّ إن شاء الله، وصُمتُ رمضان إن شاء الله، لأنه لا يدري هل أتّمه وقُبِلَ منه؟ فيعلقه بمشيئة الله وإرادته.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٧٤).

الثانية: أن يكون الحدث لم يقع:

فِيُخَبَّرُ عَنْهُ مُعَلَّقًا بِالمَشِيئَةِ، عملاً بهذه الآية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾، أي: في شيء ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وهذا فعل الأنبياء، كما قال الذبيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَا بَتِ أَفَعَلْتَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢]، وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

واستحضارُ هذا المعنى يفتح للعبد باب الرضا، فالمرء يعمل ويخطط ويبذل الأسباب، فإن جرت الأمور بخلاف ما أراد فالحمد لله، مشيئة الله نافذة سابقة، فلا تحزن ولا تيأس.

استحضار هذا المعنى يضبط الشعور، ويحقق التوازن النفسي، فإن نَجَحَ وتحقق مراده فلا بَطَرَ ولا غرور، وإن أخفق وفشل فلا يأس ولا قنوط ولا حزن.

وأخبر النبي ﷺ عن سليمان بن داود - عليهما السلام - أنه قال: «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ! فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»^(١).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨١٩)، ومسلم (١٦٥٤).



ثلاث فوائد حول «إن شاء الله»:

الأولى: الاستثناء بالمشيئة يرفع الحنث في اليمين.

فَمَنْ قَالَ: «والله، لأصومَنَّ الغد، إن شاء الله»، ثُمَّ لَمْ يَصُمْ : فلا شيء عليه.

الثانية: حكم قول: أنا مؤمن إن شاء الله.

هذه المسألة تسمى: (الاستثناء في الإيمان)، وهذا القول له حالان:

❶ أن يقوله شكًا. وهذا محرّم بالاتفاق، وربما كان كفرًا؛ لأن الإيمان جَزْم، والشكُّ ينافيه.

❷ أن يقوله مع الجزم بالإيمان. ولهذه الحال صورتان:

أ أن يقوله تبرُّكًا بذكر الله. وهذا جائزٌ.

ب أن يقوله من باب التعليل، يعني أن ما قام في القلب من الإيمان فهو كائن بمشيئة الله وإرادته، وهذا جائز صحيح.

ج يقوله من باب الإزراء وعدم تزكية النفس بأنها حققت الإيمان وكَمَلتَه، وهذا حسن مطلوب.

الثالثة: تعليق الدعاء بالمشيئة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ»^(١).

هذا خطأ دارج في هذه الكلمة (إن شاء الله) أن يُعَلَّقَ الدعاء عليها. ودل الحديث على النهي، والنهي يفيد التحريم.

ومن تمام الأدب: أن يُظْهِرَ العبد تمام الرغبة والفاقة والاضطرار إلى مطلوبه من ربه، ويعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ، «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»^(٢).

الوقفه الرابعة: الله ولي الذين آمنوا

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن هؤلاء الفتية المؤمنات: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [الكهف: ٢٦]، أي: ليس لهم من دون الله ولي يتولى أمرهم، فمن كان الله وليه فمعه المدد والعون.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) جزء من حديث متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والولاية قسمان:

الأول: ولاية من الله للعبد.

وهذه نوعان:

❶ ولاية عامة. وهذه تعمُّ جميعَ الخلقِ المؤمن والكافر، ومعناها: الخلق، والرزق، والهداية لمعاشهم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

❷ ولاية خاصة. وهذه خاصة بالمؤمن التَّقي.

ومعناها: أن يتولى الله العبدَ بعنايته وتوفيقه وهدايته ونصرته.

وهي درجة رفيعة يختص الله بها من يشاء ويحب من عباده، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦٣-٦٢].

فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا.

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى

الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقال الله - تعالى - في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنَتْهُ

بالحرب، وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا

يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ

الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ

الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ»^(١).

ولي الله: مؤمن تقي، يتقرب إلى ربه بالفرائض والنوافل.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢).

الثاني: ولاية من العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، أي: من صدق في إيمانه، وتولى الله ورسوله والمؤمنين بالنصرة؛ فهو من حزب الله، وحزب الله هم الغالبون؛ لأن الله ناصرهم.

وهذا بخلاف من يتولى الشيطان، ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [يَعْتَذِرُونَ ١١٩] يَعْذِرُهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعْتَذِرُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١].
فمن المهم أن نعرف ونميز بين هذين المعنيين: الله وليُّ المؤمن، والمؤمن وليُّ الله.

الفائدة المسلكية هنا: أن نسعى إلى تحقيق ولاية الله لكي نحظى بولاية الله^(١).

والمقصود: أن نصدق في تحقيق ولاية الله والإيمان به ونصرة دينه؛ لكي نكون من أولياء الله (الولاية الخاصة)، التي يكون بها العبد في عناية ربه، مُسَدِّدًا، مُوَفَّقًا، مَهْدِيًّا.



(١) المقصود بـ«ولاية الله» في الموضوع الأول: موالاته العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من باب إضافة المصدر إلى مفعوله. والمقصود بها في الموضوع الثاني: موالاته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعبد من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

الوقفه الخامسة: القرآن زاد المؤمن

يَأْمُرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَأْتِلْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].
والتلاوة تشمل تلاوة اللفظ، وتلاوة العمل، ومنه قول الله - تبارك وتعالى
:- ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ
بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والذي نفسي
بيده، إن حق تلاوته: أن يُحِلَّ حلاله ويحرم حرامه، ويقراه كما أنزله الله،
ولا يُحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئاً على غير تأويله»^(١).

فالتلاوة النافعة يشترك فيها اللسان والعقل والقلب والجوارح:
اللسان في الترتيل وتصحيح الحروف، والعقل في فهم المعاني وتدبرها،
والقلب في الاتعاظ والتأثر، والجوارح في العمل.

قال ابن القيم رحمته الله: «تبارك الذي جعل كلامه حياةً للقلوب وشفاءً لما في
الصدور، وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير؛
فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين»^(٢).

وقال السيوطي رحمته الله في بيان صفة التدبر: «وصفة ذلك: أن يشغل
قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر
والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى: اعتذر
واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذابٍ أشفق وتعوّذ، أو
تنزيهٍ نزهة وعظم، أو دعاءٍ تضرّع وطلب»^(٣).

والتدبر يسبقه فهم المعنى، ويكفي في ذلك مختصرٌ في التفسير.

(١) «تفسير الطبري» (٢/٤٨٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/١٨٧).

(٣) «الإتقان» (٢/٦٧٨).

الفائدة المسلكية هنا: أن نعتني بتلاوة كتاب الله التلاوة النافعة، وأن نحرص على تحقيق التلاوة بجوانبها: اللسان، والعقل، والقلب، والجوارح. كلُّ ذلك بحسب ما أمكن.

الوقفة السادسة: الصبغة الصالحة

كثيرا ما طُرق هذا الموضوع في حقِّ عموم المسلمين، لكن اللافت هنا أن الخطاب لرسول الله ﷺ المؤيَّد بالوحي من السماء، والمصطفى من الخليقة كلها، فهو أفضلها وأزكاها.

وجاء الخطاب بصيغة الأمر: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، والأمر بالصبر يشير إلى ضرورة بذل الجهد وأطر النفس، والنهي عن ضد ذلك، ولهذا قال - سبحانه -: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

وأشارت الآية إلى تصفية الصورة، وضبط المعيار في اختيار الأصحاب، وأنهم أصحاب الإيمان والعمل الصالح الذين يبتغون وجه الله، دون النظر إلى المظاهر البراقة. قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

الفائدة المسلكية هنا: أن المرء مهما بلغ في علمه ودينه؛ فهو بحاجة إلى إخوة له يجالسهم، ويجتمع بهم، ويتعاون معهم على سلوك الطريق والثبات عليه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

الوقفة السابعة: الغفلة بوابة الضياع

قال الله - تعالى -: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، في الآية تحذير من الغفلة عن الله، ومن مصاحبة الغافلين اللاهين.

والغفلة لها صور، ومنها:

١ الغفلة عن آيات الله الكونية والشرعية.

وهذا حال كثير من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، فهو غافل عن النظر في آيات الله المتلوة في كتابه، وغافل عن النظر في آيات الله المنظورة في هذا الكون الفسيح، فهو سادر في غفلته، لاهث وراء شهوته.

وإذا استولت الغفلة على القلب، استحکم الداء، فلم ينتفع بآية، ولم يتأثر بموعظة! قال - تعالى -: ﴿سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٢ الغفلة عن الآخرة.

والمقصود: الغفلة عن الموت وما بعده من أهوال وشدائد عظام، وكثير من الناس غافل عن ذلك - أيضا - . قال - تعالى -: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿[الأنبياء: ١]﴾، فهم يرون الموت بعيداً جداً، ويؤملون آمالاً عريضة، ولا يستعدّون للرحيل القريب المرتقب. والعجب أن ترى العبد تأتيه النذُر وإشارات التنبيه - مثل: تقدّم السنّ، والشيب، والمرض، وفقد الأقران، وغيرها -، ولا تحرك فيه ساكناً! وما أحسن قول حكيم الأمة أبي الدرداء رضي الله عنه: «أضحكني ثلاث: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري: أَرْضَى اللهُ أم أسخّطه»^(١).

أما - والله - لو علم الأنام
لقد خلقوا لأمرٍ لورّأته
لما خلقوا لما هجعوا وناموا
عيون قلوبهم تاهوا وهاموا
وتويخ، وأهوال عظام^(٢)
مما، ثم قبر، ثم حشر

قال ابن القيم رحمته الله: «وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر. فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصداً متراكباً على قلبه»^(٣).

وقال: «ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله - تعالى -، وتعلّق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه»^(٤).
وقال - أيضاً -: «لابد من سنة الغفلة ورقاد الهوى، ولكن كن خفيف النوم»^(٥).

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/٣٨٩).

(٢) «الكبائر»، للذهبي (ص: ١٣٣)، والأبيات له، والله أعلم.

(٣) «الوابل الصيب» (ص: ٤٠).

(٤) «زاد المعاد» (٢/٢٤).

(٥) «الفوائد» (ص: ٤١).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، إلا أربع سنين!»^(١). المعاصي، والابتعاد عن مجالس العلم والذكر، وضعف العبادة، والانصراف إلى متاع الدنيا ومتابعة أهلها = كلها أسباب لتوُّد الغفلة ونموها في القلب.

ومن آثار الغفلة الخطيرة: انفراط الأمر، فتذهب الأيام والشهور والسنوات، دون إنتاج أو أثر، تفقد بركة الوقت، وتفتر الهمم والنفوس، وتبرد العزائم، ويغلب الكسل والخمول.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، هذه الآية تهزُّ القلب، فنسأل الله أن يعيننا على أنفسنا ويرزقنا الاتِّعاض.

الفائدة المسلكية هنا: أن نحذر من الغفلة، ومن أسبابها، ومن أهلها، وأن نحصر على ما ينفعنا: من مجالس الذكر، ومجالسة الصالحين وأهل العلم، وغير ذلك.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠٢٧).

المقطع الثالث

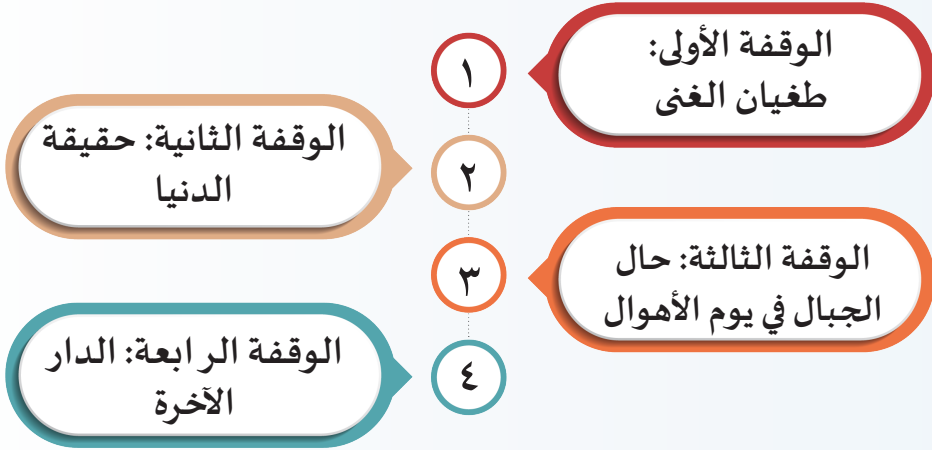
من قول الله - تعالى - : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ
جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]، إلى قوله - جَلَّ
ذِكْرُهُ - : ﴿وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ
أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].



امسح الرمز
أو اضغط
للاستماع



المقطع الثالث



الوقفة الأولى: طغيان الغنى

نجد في أوّل هذا المقطع حواراً بين صاحبين: أحدهما مؤمنٌ، والآخر كافر. وهو حوار تتقابل فيه النفسُ المنفوشة بالطغيان، والنفس المُترعة بالإيمان.

الأول: اختال وافتخر، والثاني: لا مالٌ ولا نَفَر، ولا جنة ولا ثَمَر، لكن معه ما هو أعلى وأبرُّ.. إيمان ويقين وأثر.

أمّا الأول: فأنعم الله عليه ببستانين من الأعناب، وفي أطرافهما أشجار النخيل الباسقة، وما بين هذا وذاك زروع وخيرات، والماء كان غزيراً يتفجر خلال هاتين الجنتين. وكان المحصول وافياً، فأثمرت كل حديقة ثمارها من: تمر وعنب وزرع، ولم تنقص منه شيئاً.

ومن اللطائف أن التعبير جاء بقوله: ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، ولم يقل: «ولم تنقص»، مع أنها أشهر وأكثر استعمالاً، وكأن ذلك -والله أعلم- تعريضٌ بصاحب الجنتين الذي ظلم نفسه وبطر وتكبّر.

ووافق يوماً أن اجتمع الغنيُّ بصاحب له مؤمن، فقال له في أنفة: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، فافتخر عليه بأمرين: أحدهما: الغنى وكثرة المال، والثاني: الحسب وعِزة القبيلة والعشيرة.

ولم يكتفِ بذلك، بل جاوز الحد، وقال - وهو يتبختر في بستانه -: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

استبعد فناء هذا البستان، وأنكر البعث بعد الموت.

ثُمَّ اسْتَدْرَكَ مُسْتَهْزِئًا، أَنَّهُ - عَلَى فَرَضِ وُجُودِ بَعْثٍ - فَسَوْفَ يَجِدُ هُنَاكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ، قَالَ: ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، يَقُولُ هَذَا عَلَى وَجْهِ التَّهْكِيمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ.

فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ هَذَا الْقَوْلَ الشَّنِيعَ، وَذَكَرَهُ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَذَكَرَهُ بِأَصْلِهِ، فَقَالَ لَهُ: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، وَتَبَرَّأَ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَىٰ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ دَعَا عَلَىٰ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ بِعَذَابٍ يَدْمِرُهُمَا مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ يَصْبِحُ مَأْوَاهَا غَائِرًا لَا يُوَصِّلُ إِلَيْهِ.

فَحَقَّتْ كَلِمَةُ اللَّهِ ﷻ، وَأَصْبَحَ الْمُتَكَبِّرُ يَقْلِبُ كَفِيهِهِ نَدْمًا وَحَسْرَةً، نِدْمَ عَلَىٰ شَرِكِهِ بِرَبِّهِ، وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيَمْنَعُهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ - تَعَالَىٰ -. وَانْتَقَلَ الْمَشْهُدُ مِنْ صُورَةِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالِازْدَهَارِ، إِلَىٰ صُورَةِ الدَّمَارِ وَالْبُورِ.

الفائدة المسلكية هنا: احذر من طغيان الغنى!

نعم .. مع نشوة الغنى جُبل الإنسان على الطغيان ما لم يَأْطِرِ النَّفْسَ بِرَادِعِ الْإِيمَانِ، قَالَ - تَعَالَىٰ -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ نَارٍ مَّهِينٍ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧].

وَمِنْ مَظَاهِرِ الطُّغْيَانِ: نَسْبَةُ الْفَضْلِ إِلَى النَّفْسِ، وَرُؤْيَا الْاِسْتِحْقَاقِ. فَيَقُولُ: هَذَا مَالِي وَرِثَتُهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَأَنَا حَقِيقٌ وَجَدِيرٌ بِهِ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَوْتَيْتَهُ عَلَى عِلْمٍ وَخُبْرَةٍ، وَأَنَا بَصِيرٌ بِفُنُونِ التَّجَارَةِ وَطُرُقِ الْكَسْبِ وَالِاسْتِثْمَارِ وَجِنِيِّ الْأَرْبَاحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ!

قال الله - تعالى :- ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩].

وفي السُّنة النبوية شاهدٌ واضح، وهو قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص، والأقرع، والأعمى^(١).

وفي خبر قارون الذي آتاه الله ﴿مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، أي: مفاتيح الخزائن يثقل حملها على الجماعة القوية، فكيف بهذه الخزائن وما فيها؟! لكنه طغى وبغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، فكانت العاقبة أن خسف الله به وبداره الأرض. المال فتنة، وأيُّ فتنة! قال ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(٢).

جُبلت النفوس على حب المال والتعلق به، قال الله - تعالى :- ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فجاء الإسلام بتهذيب غريزة حبِّ المال في الإنسان، وكان طريقه في ذلك وسطا بين الاشتراكية المُفْرِطَّة والرأسمالية المُفْرِطَّة. في هذا المال أبواب خير كثيرة إذا أُخذ من حلال، وأنفق في وجوه الخير، فقد سَمَّى الله المالَ خيرا، فقال - سبحانه - : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

النَّفْسُ تَجْنَعُ أَنْ تَكُونَ فَقِيرَةً وَالْفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ غِنَى يُطْغِمُهَا
وَعَنِ النَّفُوسِ هُوَ الْكَفَافُ، وَإِنْ أَبَتْ فَجَمِيعُ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يَكْفِيهَا^(٣)

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٣٦)، وأحمد (١٧٤٧١)، وصححه الألباني.

(٣) «جواهر الأدب»، للهاشمي (٤٨٦/٢).

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا يُدْفَعُ بِهِ طُغْيَانُ الْغَنِيِّ: تَذَكُّرُ الْمُبْدَأِ وَالْمَعَادِ.

المبدأ كما قال هذا الصاحبُ المؤمن: ﴿أَكْفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾، والمعاد كما في قول الله - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّهُ اسْتَمَعَ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلُّجَبِّي ﴿٨﴾﴾ [العلق: ٦-٨].

تذكر أصلك كيف كنت؟ وأين أنت صائر؟

يُذَكَّرُ أَنَّ أَمِيرًا غَنِيًّا كَانَ يَمْشِي مَتَبَخَّرًا مَعَ حَاشِيَتِهِ، فَمَرَّ بِبَعْضِ الصَّالِحِينَ فَلَمْ يَكْتَرِثْ لَهُ، فَوَقَّفَ الْأَمِيرُ، وَقَالَ لَهُ: أَلَا تَعْرِفَنِي! فَقَالَ: بلى، أَوْلِكَ نُطْفَةٌ مَذْرُوعَةٌ، وَأَخْرَجَ جِيْفَةً قَدْرَةً، وَأَنْتَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ تَحْمِلُ الْعَذْرَةَ^(١).

ذكر الشيخ ابن سعدي رحمته الله بعض الفوائد المستنبطة من هذه القصة، ومما يزداد:

١ ينبغي للإنسان إذا أعجبه شيء من ماله أن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله».

٢ النصيحة بين الأصحاب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الوقف الثانية: حقيقة الدنيا

قال الله - تعالى -: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

هذا مثلٌ قرآني يأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ فيه: بأن يضرب مثلاً للدنيا - في سرعة زوالها وانقضائها -، فيقول ما معناه: واضرب مثلاً للدنيا التي

(١) القصة في «تاريخ دمشق» (٥٦/٤٢٧).

اغثروا بها - في بهجتها وسُرعة زوالها -؛ أنها كماءٍ أنزله الله سبحانه وتعالى من السماء على الأرض، فكثُرَ بسبب هذا المطر نباتُ الأرض والتَفَّ، واجتمع بعضُه ببعض، فكان نَضِراً مُبهِجاً.. ولكن ما هي إلا مدة يسيرة حتى صار يابساً متكسِّراً تُفَرِّقُه الرِّيحُ، وكان الله على كُلِّ شيءٍ مقتدرًا: بتكوينه أوَّلًا، ونمائه وسَطًا، وإبطاله آخراً.

وتأمل هذا العرض السريع الخاطف للدنيا في ثلاث جمل قصار: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، ﴿فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾، وهذا يصور لك حجمَ هذه الدنيا وسرعة زوالها. هذه موعظة بليغة لمن كان له قلب، وقد علَّق الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تفسيره على الآية بموعظة بليغة بديعة.

والآية شبيهة بقول الله - تعالى -: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أُوذِيْتُكُمْ بَخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

ومضات حول هذه الوقفة:

الومضة الأولى: المراد بالحياة الدنيا.

سُمِّيت الدنيا بهذا الاسم لوجوه، منها:

١ من الدُّنُو: وهو القُرب، فيكون تسمية الدنيا لقرب زوالها.

٢ من الدناءة: وهي الحقارة والسفالة.

وتطلق الحياة الدُّنيا على معنيين: عام، وخاص.

فتُطلق بالمعنى العام على مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض، وبقاء الأرض على حالتها.

وتُطلق بالمعنى الخاص: على مدة حياة الأفراد، أي حياة كل أحد.

الومضة الثانية: صورة الدنيا في القرآن والسنة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أي: إنما غالبها كذلك»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ

الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: هي الحياة الحقيقية.

وأوصى النبي ﷺ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ

أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»^(٢).

وكان رسول الله يربِّي أصحابه على التعلق بالآخرة، فيقول ﷺ: «مَوْضِعُ

سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٣).

وقال ﷺ: «وَاللَّهِ، مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدَكُمْ إِصْبَعَهُ

هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرِيْمَ تَرْجِعُ»^(٤).

وقال ﷺ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرُ اللَّهِ وَمَا

وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»^(٥)، أي: مذمومة مُبْعَدَةٌ عن الله؛ لأنها تشغل عنه،

إلا ما استثني.

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤١٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٥٠).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٨).

(٥) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الألباني.

وهذه النصوص وغيرها تجلّي صورة الدنيا، والنظرة الصحيحة إليها، وتعطينا درسًا في التصورات والأحكام على ما حولنا. وليس المراد أن نطالب الناس بترك الحلال من الدنيا، وإنما تحذيرهم من التعلّق بها، واللهث الذي يجرُّ الإنسان إلى تجاوز المباح إلى المشتبه، ثم الحرام.

الومضة الثالثة: معالم منهجية في التعامل مع هذه الدنيا.

أولاً: الدنيا مزرعة الآخرة.

قال الله - تعالى -: ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:

١٢٩].

وقال - تعالى -: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فاغتتم وجودك القصير هنا في تنمية حياتك الأبدية هناك.

ثانياً: الدنيا برّاقة فلا تغتر، وهي ممرّ لا مقرّ.

وقد بدا ذلك واضحًا في آية الكهف، و أفادته الآيات الآتية:

قال الله - تعالى -: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١].

وقال - تعالى -: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وقال - تعالى -: ﴿وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ

خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

وإنَّ المنزلة والمكانة الحقيقية عند الله ليست بالمظاهر المدنية المادية، ولا بالإمكانات الاقتصادية، قال - سبحانه -: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: ٣٧].

والدنيا وسيلة لا غاية.

ثالثا: التوازن والاعتدال.

فالعاقل يطلب من الدنيا ما يحتاجه المرء لنفسه ومن يقوم عليه، ولا يجوز له تضييع من يمونهم.

قال الله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال - تعالى -: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وما في هذه الدنيا قسمان: حرام وحلال.

ونعني بالحلال: ما يقابل الحرام، وليس المباح الذي هو أحد الأحكام التكليفية الخمسة.



والحلال نوعان:

١ متعة حاضرة تزول سريعاً، كالمال والبنين واللباس والطعام والمراكب ونحوها، فهذه في ذاتها زينة وليست قيمة يمدح بها، وإنما يُتَوَصَّلُ بها إلى نيل الأجر بالنية الصالحة، فلا أحد يُثنى عليه بالمال لذاته. لكن يُمدح إذا أنفقه في وجوه الخير، ويُذمُّ إذا ضيَّعه وأساء بذله.

٢ عدة باقية نافعة، وهي الأعمال الصالحة، وهي الباقيات الصالحات، ومن فسَّرها بقول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، فهذا من باب التفسير بالمثال^(١).

ونتلمس هنا مناسبة التعقيب على هذا المثل بقول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦]، فالأموال والأبناء في حقيقتهما مجرد زينة، والذي ينفَعُ العبدَ في الآخرة هو العملُ الصالح، فهو الباقي ذخراً وأجرًا، فهو أولى بالعناية.

الوقفه الثالثة: حال الجبال في يوم الأهوال

قال الله - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]. وفي الآية مشهد من مشاهد الآخرة، ويوم القيامة يومٌ عظيم مهول، تتغير فيه المظاهر الكونية المألوفة كالشمس والقمر، والسماء والأرض، والبحار والنجوم، وغيرها.

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٦١).

ومن ذلك: هذه الجبال الشُّمُّ الراسيات؛ فقد حكى القرآن عنها صورًا ظنَّها بعضُ الناسِ اضطرابًا، والصوابُ أنَّ المقصودَ بها اختلافُ الأحوالِ وتعاقبها، وهذا مسلكٌ مفيدٌ في رفعِ الإشكالِ المتوهمِ في النصوصِ. وذلك أنَّ الجبالَ في الآخرةِ تمرُّ بمراحلٍ هي:

١ الحَمَلُ، والدَكُّ.

قال الله - تعالى - : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٣-١٤].

وقال - تعالى - : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿طه: ١٠٥-١٠٧﴾، وقال - تعالى - : ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات: ١٠].

فهذه الجبال يقتلعها الله من أصولها فيدكها وينسفها، فيدع الأرض التي كانت تحملها مستويةً لا بناء عليها ولا نبات، لا ترى أيها الناظر في الأرض ميلاً ولا ارتفاعاً ولا انخفاضاً، وذلك لتمام استواء الأرض.

٢ تحوُّلها إلى كَثيبٍ وهبَاءٍ كالصُّوفِ المنفوشِ.

قال الله - تعالى - : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، أي: بمنزلة الرَّمَلِ المنهالِ المنتثرِ، فتكون كالصوفِ المنتفشِ، وقال - تعالى - : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال - تعالى - : ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا ﴿الواقعة: ٥-٦﴾، أي فُتَّتِ الجبالُ تفتيتًا، فكانت - من التفتيت - غبارًا منتشرًا لا ثبات لها.

٣ تسييرها في الهواء.

وبعد نسفها وتحولها إلى هباء، يسيّرُها اللهُ في الهواء بين السماء والأرض.
قال الله - تعالى - : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال -
تعالى - : ﴿وَإِذَا الْجِبَالَ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠].
فيسيّرُ هذا الهباء في الهواء ويكون كهيئة السراب .. قال - تعالى - :
﴿وَسَيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٠].

الفائدة المسلكية هنا: أن نعتبر من هذه الجبال التي نراها في عظمتها
ومتانتها، كيف تكون في الآخرة، وهذا يوجب للعبد تعظيم ربه القادر
على هذه المخلوقات العظيمة، وخشيته والإحسان في عبادته.

الوقفه الرابعة: الدار الآخرة .. مشاهد وأحداث

قال الله - تعالى - : ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [٤٨] ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ
مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٨-٤٩].

تصوّرُ هذه الآيات مشاهد رهيبه، ومواقف مهيبه في عالم الدار الآخرة،
ولعلي أعيد ترتيب المشاهد والأحداث؛ ليتضح الحدث ويحسن تصوّره.

أولاً: النفخ في الصور.

إذا أراد اللهُ فناء الدنيا وابتداء الآخرة، أمر ملكاً كريماً - وهو إسرافيل -
أن ينفخ في الصور.

والصور: قرنٌ يُنفخ فيه. وجاء ذكره في القرآن في أكثر من عشرة مواضع. وهما نفختان: الأولى: نفخة فزع وصعق، والثانية نفخة بعث وقيام.

ثانياً: البعث.

والمقصود بالبعث: إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء.

ويعبر عنه بالنشور، فهو مرادف له في المعنى. والأدلة عليه لا تحصى من الكتاب والسنة، فهو قضية مركزية عظمى في القرآن الكريم.

ثالثاً: الحشر والموقف.

ويراد بالحشر: جمع الأموات وسوقهم من قبورهم إلى الموقف بعد البعث. وهو ثابت دلّ عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه المسلمون.

كما قال تعالى هنا: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ويُحشر الناسُ حُفَاةً لا نِعَالٍ عَلَيْهِمْ، عُرَاةً لا كِسْوَةَ عَلَيْهِمْ، غُرْلًا غَيْرَ مَخْتُونِينَ؛ لقوله تعالى هنا: ﴿وَعَرِضُوهَا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

ثم يُساق الناسُ إلى الموقف الذي أعده الله - تبارك وتعالى - مكاناً لاجتماع خلقه فيه، وشرفه - جل وعلا - بنزوله فيه لفصل القضاء بين عباده؛ ويصيب الناسَ من الشدّة والكرب ما لا يعلمه إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

رابعاً: الشفاعة العظمى.

وهي الشفاعة الخاصّة بالنبي ﷺ لأهل الموقف، حينما يُحشر الناس ويُساقون إلى ذلك الموقف الرهيب العصيب، فيشفع لهم عند ربّه في فصل القضاء.

خامسا: العرض، والحساب، والكتب.

قال تعالى هنا: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

والمراد: عرض العباد على ربهم سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الموقف صفوفا، عندما يتجلَّى تبارك وتعالى لهم لحسابهم وفصل القضاء بينهم، فيكون الحساب. والمراد بالحساب: إطلاعُ الله عباده على أعمالهم، ومقادير الجزاء عليها. ودلَّت عليه أدلة كثيرة جدا من الكتاب والسنة، منها:
قولُ الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

وهو حساب عظيم دقيق، لا يفوت شيئا.

قال تعالى: ﴿وَنَضْعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].
وهذا يوجب على المسلم ألا يتهاون بالحسنات وإن صغرت، ولا بالسيئات وإن صغرت، قال الله - تعالى -: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وفي ختام مشهد الحساب تنشر الكتب وتتطاير الصحف، ويُعطى كلُّ عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا. والناس صنفان:

❶ المؤمن، ويؤتى كتابه بيمينه من أمامه، فيحاسب حسابا يسيرا، وينقلبُ إلى أهله في الجنة مسرورا.

❷ الكافر والمنافق وأهل الضلال، وأولئك يؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور،

وعظائم الأمور! قال - تعالى - : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١ وَيَصَلَّى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢].
وهنا ينمهر المجرمون، ويقولون: ﴿يَوَيْلَ لَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

أحوال الناس في الحساب.

الناس يوم القيامة - من جهة الحساب - ثلاثة أصناف:

أولاً: من يحاسب حساباً عسيراً.

ويكون حسابهم بالمناقشة والاستقصاء. وهذا للكفرة والمشركين، وبعض عصاة الموحدين.

ثانياً: من يحاسب حساباً يسيراً.

ويكون حسابهم أن تعرض على العبد ذنوبه ويقرّر بها، ثم يتجاوز الله عنها. وهذا معنى قوله - تبارك وتعالى - : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ

يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨].

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ - تَعَالَى - : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَذَّبَ»^(١).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُمَا عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»^(١).

ثالثاً: من يدخل الجنة بغير حساب.

وهم الصفوة والخيار المذكورون في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب^(٢)، جعلنا الله منهم.
وأول الخلق حساباً: أمة محمد صلى الله عليه وسلم.
وأول ما يحاسب عليه العبد: الصلاة.

الفائدة المسلكية هنا: أن نستحضر هذه الأحداث والمشاهد، ونُكثِر من مذاكرتها، والأهم من ذلك: أخذ العدة والأهبة.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

المقطع الرابع

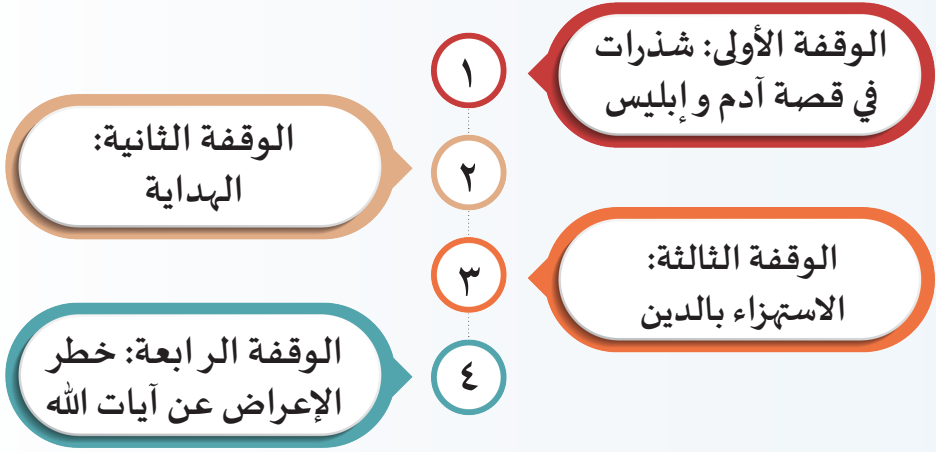
من قول الله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، إلى قوله - جَلَّ ذِكْرُهُ - :
﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم
مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].



امسح الرمز
أو اضغط
للاستماع



المقطع الرابع



الوقفة الأولى: شذرات في قصة آدم وإبليس

قال الله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وهنا أربع مسائل:

المسألة الأولى: من هم الملائكة؟

الملائكة عالم غيبي خلقهم الله من نور، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملأون ولا يتعبون، ولا يتناكحون، ولا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى. والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة.

المسألة الثانية: من هو إبليس؟

أصل هذه الكلمة من الإبلاس، ومعناه في اللغة: الانقطاع واليأس والحزن^(١).

قال الله - تعالى - : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢]، أي: ييأس المجرمون من رحمة الله، وينقطع أملهم؛ لانقطاع حجتهم. و«إبليس»: عَلَمٌ على ذاك المعين، الذي أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر، فلعنه الله وطرده.

(١) ينظر: «تاج العروس» (١٥ / ٤٦٤).

وإبليس أصل الجنّ وأبوهم، كما أن آدم أصل الإنس، وقد سبق خلق إبليس خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴿٣٧﴾﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧].
 وذرية إبليس هم الجنُّ، والجنُّ عالم من العوالم خلقهم الله من نار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

وهم - كالإنس - مُكَلَّفون ومحاسبون على أعمالهم، وفيهم المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، إلا أنهم يرون الإنس دون عكس، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والشيطان: كلُّ عاتٍ متمردٍ من الإنس والجن والدواب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»^(١).

وقال مالك بن دينار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرتني إلى المعاصي عياناً»^(٢).

وإبليس رأس الشياطين، وكثيراً ما يُخبر عنه بالشيطان، كما في قول الله - تعالى -: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وبهذا تُعرف الصلة بين إبليس والشيطان والجن.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥١٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦٨/٧).

المسألة الثالثة: هل إبليس من الجن، أم من الملائكة؟

هذه مسألة مشهورة عند أهل العلم. والراجح أنه من الجن، ومن الأدلة على ذلك:

❶ آية الكهف هذه، وفيها قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، وهو نصٌ في المسألة.

❷ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكِي قَوْلُهُ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، والجن هم الذين خُلِقُوا مِنْ نَارٍ، أما الملائكة فمن نور.

❸ عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس، كما قال - تعالى - عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

❹ أما ما ورد من استثناء إبليس من الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فهذا استثناء منقطع، والمراد به في اللغة: أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

وإنما استثنى منهم لأنه كان معهم: مشاركا لهم ومتشبهًا بأفعالهم، وإن لم يكن من جنسهم.

❺ وأما ما ذكره الطبري وغيره من آثار فيها أن إبليس كان من الملائكة: فهي من الإسرائيليات التي لا يعول عليها أمام ما سبق من الأدلة الواضحة.

المسألة الرابعة: حقيقة سجود الملائكة لآدم.

هو سجود حقيقي لآدم، لكنه سجودٌ تحية وإكرام لآدم، وسجود عبادة واطاعة لله - تعالى - . والسجود لغير الله إذا كان بأمر الله - تعالى - كان عبادة. وقد كان السجود تحيةً جائزة في الأمم السابقة، كما في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم نُسخ ذلك في مِلَّتِنَا.

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا هَذَا، يَا مُعَاذُ؟» قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ، فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَا تَفْعَلُوا؛ فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»^(١).

وظاهر السياق أن الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم: جميع الملائكة، كما يفيد التأكيد في قول الله - تعالى -: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠].

الفائدة المسلكية هنا: الحذر من مخالفة أمر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والحذر من طاعة الشيطان والركون إلى وسوسته وكيده؛ فقد قطع الله بعداوته لنا، وأمرنا باتخاذهِ عَدُوًّا، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وهو - بحمد الله - كيدُهُ ضعيف، وهو وسواس خناس: وسواسٌ عند الغفلة، خناسٌ عند الذكر.

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣)، وأحمد (١٩٤٠٣)، وقال الألباني: حسن صحيح.

الوقفة الثانية: الهداية

قال الله - تعالى :- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]، وقال بعدها: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

يذكر الله في هذه الآية مانعاً من موانع الهداية، وهو العناد والتحدّي، حيث امتنع هؤلاء من الإيمان بعد أن جاءهم سبب الهداية (الرسول، والقرآن)، وذلك بسبب تحدّيهم للرسول ﷺ، وطلّهم أن تصيبهم سُنَّةُ الله في إهلاك السابقين عليهم، أو يصيبهم عذابُ الله عياناً، فختم الله على قلوبهم! والكلامُ على الهداية في أربع مسائلٍ مختصرة:

المسألة الأولى: نعمة الهداية.

الهداية من أعظم النعم والمِن.

قال ربُّنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال رسول الله ﷺ للأَنْصَارِ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي»^(١).

والعبد يكرّر في اليوم واللييلة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاحة: ٦]؛ لأنه

محتاج إلى تفاصيل الهداية، ومحتاج إلى الثبات على الهداية.

والهداية تتبعها هداية، قال الله - تعالى :- ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ

هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

المسألة الثانية: أقسام الهداية.

الهداية قسمان:

أولاً: هداية فطرية:

وهذه عامة لجميع المخلوقات. ومعناها: إلهامهم ما فيه مصالحهم في أمور معاشهم. ومن صورها: هداية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلصبي الوليد إلى التقام ثدي أمه ومصِّه ليتغذى به، وهداية النحل أن تتخذ بيوتاً من الجبال ومن الشجر، وأن تعمل في نظام دقيق، وهداية الحيوانات إلى التزاوج والتناسل بينها دون معلّم.

وهذه الهداية هي المقصودة في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣].

أي: هدى كلّ مخلوق إلى ما يناسبه ويوائمه.

ثانياً: هداية دينية. وهذه نوعان:

١ هداية توفيق وإلهام. وهذه خاصة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢ هداية دلالة وإرشاد. وهذه ثابتة للبشر.

وبهذا التقسيم يتبين وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالهداية المنفية في قوله - تعالى - : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، هي هداية التوفيق والإلهام. والهداية المثبتة في قوله - سبحانه - : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، هي هداية الدلالة والإرشاد.

المسألة الثالثة: أسباب الهداية.

مما يعين على تحصيل الهداية:

أولاً: الدعاء.

قال الله - تعالى - في الحديث القدسي: «يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»^(١).

ونحن ندعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كُلِّ رَكْعَةٍ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].
ومن الأدعية النبوية: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»^(٢)، و«اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي»^(٣)، «واهدني ويسر الهدى لي»^(٤).

ثانياً: الإيمان.

قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

ثالثاً: القرآن.

قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال - تعالى -: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال - سبحانه -: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤].

رابعاً: المجاهدة.

قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٢١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٢٥).

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (١٥١٠)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وصححه الألباني.

خامسا: الصحبة الطيبة.

قال الله - تعالى :- ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ وَ أَصْحَبٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

سادسا: الاعتصام والتمسك بالدين والثبات عليه.

قال الله - تعالى :- ﴿وَمَنْ يَعْصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال - تعالى :- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

سابعا: طاعة الرسول ﷺ.

قال الله - تعالى :- ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وقال - تعالى :- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدِيَنَّهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

ثامنا: التوبة والإنابة.

قال الله - تعالى :- ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال - تعالى :- ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

المسألة الرابعة: موانع الهداية.

أولا: اتباع الهوى.

ومعناه: اتباع ما تميل إليه النفس مما لم يُبحه الشرع في أمور العقائد، أو الشرائع والعبادات، أو الأخلاق والمعاملات.

واتباع الهوى يحجب عن سُبُل الهداية ويصرف عنها، قال ربُّنا - سبحانه -: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ثانياً: الكبر والغرور.

وهو يُعْمِي صاحبه ويصرفه عن الخير، قال الله - تعالى -: ﴿سَاءَ صَرِفُ عَنَّايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ثالثاً: عدم الأهلية.

فَمَنْ عَلمِ اللهُ إِعْرَاضَهُ وَصُدُودَهُ، مع توالي النُّذُر والآيات والدعوة إلى الحق، فإن هذا العبد لا يُوفِّق لهداية التوفيق من الله لعدم قابلية المحل، قال - تعالى -: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال - سبحانه -: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال - جلَّ ذكره -: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨].

فهذا فيمن سبق في علم الله أنه لا يهتدي لعدم قبوله. وليس في هذا ظلم منه سبحانه وتعالى لأولئك المعرضين، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم؛ فإنهم هم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه، وتقليب القلوب عقوبة لهم وعد لا منه بهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَنُقَلِّبُ أَقْصَابَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

رابعاً: عدم الخضوع والاستجابة لأمر الله سُبحانهُ وتعالى.

قال الله - تعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا

﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-

٦٨]، والمراد هداية التوفيق.

خامساً: تأثير جليس السوء.

وفي قصة أبي طالب حين حضرته الوفاة أوضح شاهد ودليل، فقد صُرف عن الإيمان وعن كلمة التوحيد في آخر لحظات حياته، ومات على الشرك والكفر بسبب اثنين من قومه^(١).

الفائدة المسلكية هنا: استحضران نعمة الهداية، والسعي في كل سبب يثبثها ويزيدها، والنأي عن كل مانع منها.

الوقفه الثالثة: الاستهزاء بالدين

قال الله - تعالى - ، في وصف الكافرين: ﴿وَأَتَّخِذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦]. وهذه سمةٌ غالبية يفزع إليها الكفرة والمنافقون والفاسقون، وهي: الاستهزاء بأهل الدين وما يحملونه من شعائر دينهم ومعامله.

ولعليّ أتحدث حول هذه الوقفة في أربع مسائل:

(١) ينظر: صحيح البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

المسألة الأولى: معنى الاستهزاء، وضابطه.

الاستهزاء: هو السخرية^(١). قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].
ويرجع في ضابطه إلى العرف، فما عدّه الناس استهزاءً فهو كذلك.
فالاستهزاء بالدين يشمل كلّ قول أو فعل يدل على الطعن في الدين، والتنقص منه، والاستخفاف به.

المسألة الثانية: حكم الاستهزاء بالله ورُسُلِهِ ودين الإسلام.

من استهزأ بالله أو برُسُلِهِ أو بدين الإسلام = فهو كافر.
ومن الأدلة على ذلك: قول الله - تعالى -: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَعَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَدِرُوا قَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وهذا نصٌّ في كفره، ولو كان هازلاً.
وهناك أدلة أخرى لا نطيل بذكرها.
فمن وقع في شيء من ذلك فعليه المسارعة بالتوبة، وتجديد الإسلام.

المسألة الثالثة: واجب المسلم عند سماع الاستهزاء.

الاستهزاء بالدين مرتعٌ وخيم، وبلاء عظيم، وقع التساهل به في الأزمنة المتأخّرة، لاسيما في وسائل الإعلام ووسائل التواصل بأنواعها. و«الواجب على المسلم - إذا سمع أو رأى شيئاً من الاستهزاء بالدين - أن يُنكر على قائله وفاعله إنكاراً شديداً. فإن لم يستجب له لزمه مغادرة المكان الذي

(١) ينظر: «لسان العرب» (١/١٨٣).

هو فيه. قال - تعالى - : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ - إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وأما التبسُّم والضحك عند سماع هذا الكلام، فيجعل صاحبه شريكا للقائل في الإثم، إن كان عن رضا وقبول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ۗ﴾. وإن لم يكن عن رضا وقبول، فهو معصية كبيرة تدل على عدم تمكُّن تعظيم الله وشعائره من قلبه»^(١).

المسألة الرابعة: حكم الاستهزاء بالعلماء وسائر المسلمين.

الاستهزاء بالمسلم له صورتان:

الأولى: أن يكون ذلك في أمر ديني، كاللحية، وتقصير الثوب، وحجاب المرأة. فإن كان الاستهزاء لذات الشرع فهو كفر. وإن كان عائدا على الشخص فهو فسق.

الثانية: أن يكون الاستهزاء بذات الأشخاص وفعالهم الدنيوية المجردة، كمن يستهزئ بفلان في لباسه أو أكله، فهو فسق، وفيه يقول الله - تعالى - : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۗ﴾ [الحجرات: ١١].

ويَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، وَالْاِسْتِهْزَاءُ بِهِمْ أَشَدُّ مِنَ الْاِسْتِهْزَاءِ بِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ: فَإِن كَانَ الْاِسْتِهْزَاءُ لَدِينِهِمْ فَهُوَ كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَإِن كَانَ لِأَشْخَاصِهِمْ وَذَوَاتِهِمْ (أَي: لَصِفَاتِهِمُ الْخَلْقِيَّةَ أَوْ الْخُلُقِيَّةَ)، فَهُوَ فَسْقٌ.

(١) موقع الإسلام سؤال وجواب: <https://www.islamqa.com/answers/ar/23831>

الفائدة المسلكية هنا: الحذر من كل باب أو مدخل من مداخل الاستهزاء بالدين وأهل الدين، وإنكار ذلك، والبُعد عن مجالسة المستهزئين - واقعيًا، أو افتراضيًا، عبر وسائل التواصل -، أو موافقتهم.

الوقفه الرابعة: خطر الإعراض عن آيات الله

قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

والكلام على هذه الوقفة في مسائل:

المسألة الأولى: معنى الإعراض، ووروده في القرآن.

الإعراض عن الشيء: الصَّدُّ عنه، بأن توليه عَرْضَكَ: أي جانبك^(١).
وحقيقته: الانصراف عن الشيء بالقلب.

وقد ورد ذكرُ الإعراض في القرآن الكريم في أكثر من خمسين موضعًا.
وجاء التعبير عنه بألفاظ أخرى، منها:

١ التولي. قال الله - تعالى -: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

٢ الصدود. قال الله - تعالى -: ﴿رَأَيْتَ الْمُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ

صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

٣ الأفوك. قال الله - تعالى -: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ [الذاريات: ٩].

٤ الإذبار. قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ٢٣].

وكثُر في القرآن الحديثُ عن هذه المعاني، وبيانُ حال المعرضين ومآلهم.

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٨٢/٧).

المسألة الثانية: صور الإعراض.

من صور الإعراض:

١ الإعراض عن آيات الله الشرعية والكونية.

قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢]، أي: أعرض عنها بالصدود وعدم القبول.

وقال - تعالى -: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ٩٩-١٠٠].

والذكر هو القرآن، فمن أعرض عنه فلم يؤمن به، ولا عمل بما فيه؛ فإنه يأتي يوم القيامة حاملاً إثماً عظيماً، ومستحقاً عقاباً أليماً.

وقد يكون الإعراض عن الآيات الكونية بعدم التفكر والاعتبار، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والإعراض هنا بمعنى الغفلة وعدم الاعتبار.

٢ الإعراض عن الامتثال.

فترد على العبد الأوامر والنواهي، وهو يسمع ويفهم، لكنه معرض غير مبالي. قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال - سبحانه -: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِ عَاتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

٣ الإعراض عن الآخرة.

ويكون بالغفلة عنها، وعدم الاستعداد لها. قال ربُّنا - سبحانه -: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

٤ الإعراض عن المواعظ والتذكير.

فإذا سمع الموعدة في مجلس أو مناسبة انقبض واشمأز، وكره هذا المجلس، وتمنى الخلاص منه.

وهذه علامة سوء! وقد أخبر الله عن المشركين فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. وقال - جلَّ ذكره -: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُّعْرِضِينَ﴾ [٤٩] كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

المسألة الثالثة: أسباب الإعراض.

١ تسلط الدنيا على القلب.

قال الله - تعالى -: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وقال - جل وعلا -: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

٢ العناد والتعنت.

وهذه خصلة ترسخت في نفوس كثير من المعرضين، وتأمل قوله - تعالى -: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]، وقوله - سبحانه -: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].

٣. التقليد.

فيقلد الآباء والقبيلة وأهل البلد في الباطل.

قال الله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قُلْ أَوْلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿الزخرف: ٢٣-٢٤﴾

٤. الكبر.

كما وقع لإبليس حين أمر أن يسجد لأدم، فإنه عصى وأعرض بسبب كبره.

المسألة الرابعة: أنواع الإعراض.

الإعراض عن الدين نوعان:

الأول: إعراض كلي.

وهو الإعراض التام عن تعلم أصل الدين مع قدرته على ذلك، أو يعرض إعراضاً تاماً عن جنس العمل، مع القدرة. وصاحب هذا الإعراض كافر خارج عن ملة الإسلام.

والثاني: إعراض جزئي.

وهو الإعراض عن تعلم تفاصيل الدين، وعن العمل ببعض الواجبات. وصاحب هذا الإعراض ناقص الإيمان مع بقاء أصله، فهو لا يخرج بإعراضه عن الإسلام.

المسألة الخامسة: عقوبة الإعراض.

الإعراض عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَعَنْ شَرِيعَتِهِ = سبب لنزول أنواع العذاب في الدنيا والآخرة. وقد أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحال قوم سبأ وما هم فيه

من نعيم الدنيا، ثم تحولت العافية عنهم، وأبدل حالهم من النعمة إلى النقمة بسبب إعراضهم، قال - تعالى -: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِىْ أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلِ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦].
وجاء التهديد المخيف لكفار مكة إن قابلوا الدعوة بالإعراض، قال - تعالى -: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].
وعذاب الآخرة أشد وأبقى، قال ربنا- جل ذكره -: ﴿رَقَدَ عَاتِيْنَكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۚ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۚ خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

وأهل الإعراض متوعدون بانتقام الله - تعالى -، ومن يبارز الله ﷻ في جبروته وملكوته؟! ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

ومن العذاب العاجل ما يجده المعرضون في صدورهم من ضيق وضنك، يجعل عيشهم مرًا، ولو كانوا في الظاهر منعمين، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

قال ابن الجوزي رحمته الله: «رأيتُ سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله - عز وجل -، والإقبال على الدنيا»^(١).

وقال ابن القيم رحمته الله: «ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله - تعالى -، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه؛ فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالاً، ولا أنكد عيشاً، ولا أتعب قلباً»^(٢).

(١) «صيد الخاطر» (ص: ٣٤١).

(٢) «زاد المعاد» (٢/٢٤).

المقطع الخامس

من قول الله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا
أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾
[الكهف: ٦٠]، إلى قوله - جَلَّ ذِكْرُهُ - : ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا
لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].



امسح الرمز
أو اضغط
للاستماع



المقطع الخامس

الوقففة الثانية:
أحداث القصة

١

الوقففة الأولى:
أطراف القصة

٢

الوقففة الثالثة:
الفوائد والعبر

٣



الوقفة الأولى: أطراف القصة

أطراف هذه القصة ثلاثة، ذكر اسم أحدهم في القصة، وأبهم الاثنان، لكن بُيِّنَا في السَّنة:

الأول: موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ.

رسولٌ كريمٌ من رسل الله، وهو من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - وهو كلِّيم الرحمن، وأحد أولي العزم من الرسل، آتاه الله التوراة، وأرسله إلى فرعون، وجرى بينهما أحداث كثيرة ذكرها الله في كتابه. وأكثر قصص القرآن تكراراً قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الثاني: يوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لم يُذكر اسمه في سياق القصة، وإنما قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ﴾ [الكهف: ٦٠]، لكن ثبت اسمه عن النبي ﷺ. وتسميته بهذا الاسم متفق عليه بين أهل العلم، وإنما سُمِّي فتاه؛ لأنه كان يلازمه، ويأخذُ عنه العلمَ وَيَخْدُمُهُ^(١).

وهو الذي خَلَفَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه، وفتح بيت المقدس، وورد عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لِيَالِي سَارِإِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ»^(٢).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَمَا يَبْنِ

(١) ينظر: «زاد المسير» (٣/٩٥).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٨٣١٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/٣٩٤).

بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِيفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا. فَغَزَا فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحَبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١).

فإذا جمعنا هذا الحديث مع الذي قبله؛ توصلنا إلى أنه نبيٌّ من أنبياء الله. قال الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «قام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده: فتاه يوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس»^(٢).

ثالثا: الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولم يُذكر اسمه - أيضا - في القصة، لكن بينت ذلك السُّنَّة. والخضر مَمَّنْ كَثُرَ الكلام عليه، وأطال الحافظ ابن حجر ترجمته في «الإصابة»، بل أفردَ فيه كتابا سَمَّاهُ «الزهر النضر في أخبار الخضر».

والذي يَعْنِينَا من أمره مسألتان:

الأولى: هل هونبيٌّ؟

وعامة العلماء على أنه نبيٌّ. ومن الأدلة على ذلك:

❶ ظاهر قول الله - تعالى - في شأنه: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

❷ أنه أقدمَ على أفعال لا تصدر إلا عن وحي، كقتل الغلام.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

(٢) «البداية والنهاية» (٣٥٩/١). وينظر - للمزيد عن يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ: «التحرير والتنوير»، لابن

عاشور، عند هذه الآية.

الثانية: هل مات؟

الراجح أنه مات. والدليل على ذلك:

❶ عموم قول الله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مَّتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

❷ قوله ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»^(١).

❸ لو كان حيًّا، لوجبَ عليه أن يؤمنَ بالنبى ﷺ ويهاجرَ إليه ويُجاهدَ معه، ويكون من أعيان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ولم يقع شيء من ذلك.

❹ لو كان حيًّا - وهو من أنبياء الله -، فلا بد أن يشتهر أمره ويُعرف ويُتبع ويؤخذ عنه.

وقد فنّد ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ القولَ ببقائه حيًّا من عدة وجوه في كتابه «المنار المنيف»^(٢).

الوقفة الثانية: أحداث القصة

لعلِّي أقرب أحداث هذه القصة التي وقعت لموسى مع الخضر - عليهما السلام -، من خلال ما ذُكر في القرآن والسنة. وسأجعل ذلك في حلقتين:

الحلقة الأولى: قبل اللقاء.

قام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يوماً خطيباً في بني إسرائيل، فسأله رجلٌ عن أعلم الناس، من هو؟ فظنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أعلمُ أهل الأرض، لكونه رسول

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧).

(٢) يُنظر: «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» (ص: ٦٧).

رب العالمين، فأجاب ذلك السائل بقوله: أنا أعلم. وكان الأولى به عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقول: «الله أعلم».

قال رسول الله ﷺ: «فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ»^(١).

ومجمع البحرين هو ملتقى البحرين، والله أعلم بحقيقة المراد. ومن اللطائف ما قال السُّهَيْلِيُّ: «اجتمع البحران - يعني موسى والخضر عليهما السلام - بمجمع البحرين»^(٢).

فعزم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فورًا أن يلتقي بهذا العبد الذي هو أعلم منه، وكانت همته عالية، وعزيمته راسخة، فقال: ﴿لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ [الكهف: ٦٠]، أي: لا أزال أسير حتى أصل هذا المكان، أو أظلُّ سائرًا زمنًا طويلًا حتى ألقاه.

ولكنه لا يعرفه، فسأل ربه علامةً على ذلك، فقال: «يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمٌّ»^(٣).

فهذه هي العلامة: أن يحمل حوتًا في وعاء، فإذا فقده فهو هناك.

فانطلق موسى ومعه فتاه يوشع بن نون في رحلة البحث والعلم، وحملاً معهما حوتًا في مِكتَلٍ يقتاتان منه، وقال موسى لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي حَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ، قَالَ: مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَسَارَا حَتَّىٰ وَصَلَا عِنْدَ صَخْرَةٍ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا^(٤).

(١) جزء من حديث متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) نقله الحافظ في «الفتح» (٤٠٨/٨).

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري»، حديث رقم (٤٧٢٦).

وفي رواية للبخاري أن النبي ﷺ قال: «وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا «الْحَيَاءُ»، لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ، فَأَصَابَ الْحُوتَ مِنْ مَاءِ تِلْكَ الْعَيْنِ. قَالَ: فَتَحَرَّكَ وَانْسَلَّ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَدَخَلَ الْبَحْرَ»^(١).
وهاتان آيتان عظيمتان:

❶ أن هذا الحوت كان ميّتا يقتاتان منه، ثم بعث الله فيه الحياة.

❷ أن هذا الحوت صار طريقه في البحر سريّا، أي: كالسرّداد لا يلتئم الماء عليه.

قال رسول الله ﷺ: «فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جَرِيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ»^(٢)، أي: فصار كالنفق في الماء.

واطلع الفتى على ما جرى للحوت ونسي أن يخبر موسى بذلك^(٣)، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: ﴿عَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، أي تعبًا. قال رسول الله ﷺ: «وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمْرَبِهِ»^(٤)، فقال له فتاه: ﴿أَرَعَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣]، قال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ [الكهف: ٦٤]، أي هذا ما كنا نريده، ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، فرجعا يتتبعان آثار أقدمهما؛ لئلا يضيعا عن الطريق حتى انتهيا إلى الصخرة.

(١) أخرجها البخاري في صحيحه (٤٧٢٧).

(٢) جزء من حديث متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) في البخاري (٤٧٢٦): «فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أَوْقِظُهُ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ...».

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٢٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

الحلقة الثانية: بعد اللقاء.

لما وصل موسى وفتاه إلى الصخرة التي فقدوا عندها الحوت، وجدا الخضر هناك قد تغطى بثوبه، «فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنْتَ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟»^(١)، أي كيف يصدر السلام في هذه الأرض؟ وهذا تعجب. قال العلماء: «وكأنها كانت بلاد كفر، أو كانت تحيتمهم بغير السلام»^(٢).

فائدة: فيه دليل على أن الأنبياء ومن دونهم لا يعلمون من الغيب إلا ما عَلَّمَهُمُ اللَّهُ؛ إذ لو كان الخضر يعلم كل غيب لعرف موسى قبل أن يسأله^(٣). فقال موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٤) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧-٦٨]، ثم قال: «يَا مُوسَى، إني على علمٍ من علمِ الله عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكُهُ لَا أَعْلَمُهُ»^(٤).

فتشجع موسى وقويت رغبته، وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

فقال الخضر: ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

وبدأت رحلة المصاحبة، وجرى فيها ثلاثة أحداث رئيسة:

الحدث الأول: خرق السفينة.

انطلق موسى والخضر «يَمْشِيَانِ عَلَيَّ سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمُ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) قاله الحافظ في «الفتح» (١/٢٢٠).

(٣) السابق نفسه.

(٤) جزء من الحديث السابق.

بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عَلَيَّ وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ!

فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَابِ السَّفِينَةِ فَزَعَهُ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴿[الكهف: ٧٢-٧٣]، فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا﴾^(١).

الحدث الثاني: قتل الغلام.

ثم انطلقا «فَإِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَآخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ»^(٢)، فقال موسى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، فقال الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، فاستحيا موسى، وقال: ﴿إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

الحدث الثالث: إقامة الجدار.

ثم انطلقا في المسير وقد بلغ بهم الجهد، فأتيا أهل قرية لثامًا^(٣)، فطافا في المجالس فاستطعما أهلها، فلم يضيفوهما، فوجدا فيها جدارا مائلا، فَمَسَحَهُ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ.

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) ذكر ابن حجر في الفتح (٢٧٣/٨) أقوالا في تعيين هذه القرية، ثم قال: «وهذا الاختلاف قريب من الاختلاف في المراد بمجمع البحرين، وشدة المباينة في ذلك تقتضي أن لا يوثق بشيء من ذلك».

فقال له موسى: قوم استطعمناهم فأبوا أن يطعمونا، واستضفناهم فأبوا أن يضيفونا عمدت إلى حائطهم، فأقمته!، لو اتخذت على عملك هذا أجرًا نأكل منه.

فقال الخضر: هذا فراق بيني وبينك، فحسم الأمر، وأنهى الصحبة^(١). قال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقْصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»^(٢).

ثم أراد الخضر أن يبين الأمر، فقال لموسى: ﴿سَأَتَّبِعُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

فبدأ الخضر في بيان دوافع أفعاله التي أنكرها موسى، فقال: أما السفينة: فكانت لمساكين يعملون في البحر وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكرها، فإذا كانت السفينة معيبة فإنه يتركها. فكانت المصلحة في خرق السفينة لتسلم وتبقى لأصحابها المساكين، فإذا جاوزوا الملك الظالم أصلحوها ورقعوها بخشبة.

وأما الغلام: فإنه طبع كافرا، وكان أبواه مؤمنين، وكانا يحبانه ويعطفان عليه، ولو عاش الغلام وأدرك لأرهب أبويه طغيانا وكفرا بسبب قوة محبتهم له، فأردنا أن يبدلهم ربهما خيرا منه صلاحا ودينا، وأقرب رُحما، أي: رحمة وبرا بهما.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في أبوي الغلام: «أبدلهم جاريةً، فولدت نبيا من الأنبياء»^(٣).

(١) ينظر: صحيح البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) «تفسير الثعلبي» (٦/١٨٧).

وأما الجدار الذي أصلحته و أقمته: فكان لغلامين يتيمن في المدينة، وكان تحت الحائط كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً^(١)، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك؛ لأنه لو ترك الحائط وسقط، لانكشف الكنز، وتعرض للسرقة والضياع، لأنهما صغيران، فكان من رحمة الله بهما أن سخر لهما الخضر لحفظ كنزهما.

ذلك يا موسى تأويل ما لم تسطع عليه صبراً.

الوقفه الثالثة: الفوائد والعبر

١ فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، والهمة في ذلك.

ومأخذ هذه الفائدة: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وصبر على ذلك في سبيل تحصيل العلم، وقطع على نفسه أن يسير إلى أن يلقاه ولو مكث زمناً طويلاً في المسير.

قال قتادة: «لو كان أحدٌ يكتفي من العلم بشيء، لاكتفى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]»^(٢).

٢ جواز اتخاذ الخادم في الحضر والسفر؛ لكفاية المؤمن، وطلب الراحة، كما فعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣ التأدب مع الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدم إضافة المكروهات إليه، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره.

(١) قال ابن جزي في تفسيره (١/٤٧٣): «قيل: إنه الأب السابع. وظاهر اللفظ أنه الأقرب».

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/٤١٨).

ومأخذ هذه الفائدة قول فتى موسى - عليهما السلام -: ﴿وَمَا أُنْسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقول الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، حيث أضاف عَيْبُ السفينة إلى نفسه. أما الخير: فأضافه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَقَالَ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزُهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

وما أحسن قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

٤ جواز إخبار الإنسان بما يصاب به، من نصب أو ألم، أو جوع، أو

عطش، إذا كان صدقا، ولم يكن على وجه التسخط.

ومأخذها من قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]^(١).

٥ التأدب مع المُعَلِّمِ، وانتقاء أحسن الألفاظ في مخاطبته.

ومأخذها من قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال هذا وهو أفضل من الخضر، لكن رغبةً فيما عنده من العلم.

وذكر أبو شامة المقدسي رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن بعض المتقدمين أنه كان إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء، وقال: «اللهم استر عيب مُعَلِّمي عني، ولا تُذهب بركة علمه مني»^(٢).

(١) فصَلْتُ الكلام على حكم الشكوى للمخلوق عند المصيبة في «شرح كتاب التوحيد»، في باب «من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله».

(٢) «إبراز المعاني من حرز الأمانى» (ص: ٧٦٩).

٦ التواضع في طلب العلم.

وقد ظهر هذا جلياً في هذه القصة، حيث سار موسى على علو منزله، وأفضليته، إلى الخضر؛ طلباً لما عنده من العلم. قال مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا يتعلم العلم مستحي، ولا مُستكبر»^(١).

تنبيه: أخطأ بعض الناس فظن أن الخضر أفضل من موسى؛ لما وقع في القصة من اتباع موسى إياه، وهذا خطأ كبير.

فموسى أفضل من الخضر، وأعلى قدرًا ومنزلة، وهو رسول الله بل من أولي العزم المصطفين، والخضر ليس برسول، بل هو نبي مُخْتَلَفٌ في نبوته، والأقرب أنه نبي كما سبق. وهو أحد أنبياء بني إسرائيل الداخلين في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٧ الحرص على العلم النافع المرشد لكل خير.

ومأخذها من قول موسى للخضر - عليهما السلام -: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، فعلى العبد أن يسعى لتعلم كل ما ينفعه ويرشده إلى الخير، ويحذر من العلم الضار، أو الذي لا نفع فيه.

٨ الصبر في طريق العلم، فإنه يحتاج إلى صبر ومصابرة:

صبر على التحصيل، وصبر على ملازمة مجالس العلم، وصبر على جفاء بعض الشيوخ.

ومن ليس له قوّة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحُسن الثبات على ذلك، فإنه يفوته كثيرٌ من العلم بحسب عدم صبره.

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٥٧٠)، بنحوه، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٤١٠)، وعلقه البخاري مجزوماً به في «باب الحياء في العلم» (٣٨/١).

٩ تربية النفس على التآني والتثبُت، وعدم التعجل في الحكم على

الأمور بالنظر إلى ظواهرها.

وقد أجيب عما فعله الخضر.

أما عيب السفينة: فكان لمصلحة أعظم، وهي حفظ السفينة من استيلاء الملك، فإذا جاوزوه أُصلحت وأُعيدت، كما كانت.

وأما قتله الغلام: فلعله كان في تلك الشريعة، وقد كان بوجي.

وأما إقامة الجدار: فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان، وهو من مكارم الأخلاق.

١٠ تعليق الأمور المستقبلية على مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومأخذها من قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وسبق الكلام على ذلك عند قول الله - تعالى - : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

١١ الشيطان يسعى في نسيان العبد الخير.

حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا قول فتى موسى - عليهما السلام - : ﴿وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال - تعالى - : ﴿وَأِمَّا يُنَسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال - سبحانه - : ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال - جلَّ ذِكْرُهُ - : ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

فعلى العبد أن يتعوذ بالله من الشيطان.

١٢ جواز ركوب البحر، والعمل فيه، في غير الحالة التي يخاف منها. وما أخذها من قول الله - تعالى -: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

١٣ ارتكاب المفسدة الصغرى في سبيل دفع المفسدة الكبرى. وهذه القاعدة يُحتاج إليها عند تزامن المفسد، والإلجاء إلى ارتكاب بعضها. وما أخذها: خرق السفينة مفسدة، لكن تركها واستيلاء الملك عليها مفسدة أعظم.

وقتل الغلام مفسدة، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم.

١٤ أن المسكين أحسن حالاً من الفقير.

وهذا إذا اجتمع ذكرهما في سياق واحد، ووجه ذلك قوله - تعالى - ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فأثبت لهم ملكية المال الذي ينتفع به ويدر غلة على صاحبه. وضبط بعض الفقهاء المسكين بأنه من يجد أكثر من نصف حاجته دون تمامها.

والفقير من لا يجد شيئاً، أو يجد دون النصف.

١٥ بركة الصلاح والطاعة.

وما أخذها من قول الله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فهذا العبد الصالح حفظه الله سبحانه وتعالى في ذريته، ويسر له من يقوم على مصالحهم.

قال محمد بن المنكدر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولدَ ولده، وأهلَ دويراتِ حوله، فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»^(١).

❖ ١٦ المواقفة بين الأصحاب سبب لدوام الصحبة والألفة، والمخالفة

سبب لانقطاعها.

وهذا في غير المحظور.

❖ ١٧ تلمَّح المنح في طيات المحن.

فكم مما يقدره الله لك أو لغيرك تراه - بادئ الأمر - شرا وسوءا، لكن تعود عاقبته خيرا ونفعا. قال الله - تعالى -: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهذا ظاهر مما جرى بين موسى والخضر في قصة السفينة والغلام. فإن أصابك أذى أو ضرر أو ظلم فاصبر، وقوِّ قلبك، وتلمَّح المنح في طيات المحن.

❖ ١٨ الزيادة في المبني تدلُّ على زيادة في المعنى.

قال الله - تعالى -: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، ثم أخبره، ثم قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].
الشاهد هنا الفعلان: (تَسْتَطِعُ) و(تَسْطِغُ) بالتاء وحذفها، وهما بمعنى واحد.

وذكر بعض المفسرين أن الفائدة من هذا التغاير أمران:

الأول: فائدة لفظية، وهي عدم تكرار الكلمة بلفظها؛ فإن ذلك معيب

عند الفصحاء.

(١) «الزهد»، لابن المبارك (ص: ١١١).

والثاني: فائدة معنوية، وهي أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فزيادة حرف (التاء) في إحدى الكلمتين تدل على أن الاستطاعة فيها أشد من الأخرى.

في الموضع الأول قال الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، فالاستطاعة هنا أشد لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن يعلم سبب أفعال الخضر التي أنكرها، فهو في هم وثقل وشوق. فلما أخبره بذلك قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ لأن الأمر هنا صار أخف بعد تجلية الأمر واتضاحه.

وهذه الفائدة تقال - أيضا - فيما يأتي من قصة ذي القرنين، عند قوله - تعالى -: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

١٩ حقيقة «العلم اللدني».

هذا المصطلح زلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام!

والخلاصة فيه أن يقال:

العلم الذي يحصل للعبد نوعان:

الأول: علم مكتسب، يدركه العبد بجِدِّه واجتهاده من خلال شيخ أو كتاب ونحو ذلك، بعد توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعُونَهُ لَهُ.

والثاني: علم لُدْنِي، وهو العلم الذي يُمْنُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ فَتوحَاتٍ وَإِشْرَاقَاتٍ مِنْ غَيْرِ شَيْخٍ وَلَا كِتَابٍ، كَمَا قَالَ - تعالى - عَنِ الْخَضِرِ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وكَمَا قَالَ عَنِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فَأَلْقَى اللهُ - تعالى - فِيهِمُ الْقَضِيَةَ عَلَى سَلِيمَانَ دُونَ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامَ -.

وسأل أبو جُحَيْفَةَ رضي الله عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا وَالَّذِي فَلقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهَمَّا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ» ... الحديث^(١).

فهذا هو العلم اللدنيّ المعتبر، وكلما كان العبد محققًا للعبودية والصدق والإخلاص والمتابعة = فتح الله عليه من فتوح العلم، قال - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال ابن تيمية رحمته الله: «أما العلم اللدنيّ: فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين - بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبُّه - ما لا يفتح به على غيرهم»^(٢).

ولا بد في هذا العلم اللدنيّ من ضابط مهم: وهو أن يُعرض على الوحي (الكتاب والسنة): فإن خالف ما تقرّر فيهما = لم يُقبل.

وقد زلّت طوائف من الصوفية من هذا الباب، وضخّموا (العلم اللدنيّ) الذي يفيضه الله على الولي مباشرة، وقرروا أن الدين قسمان: حقيقة، وشريعة، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله بلّغ الشريعة، ولم يُبلّغ الحقيقة! وأن نصوص الكتاب والسنة للعامة، والعلم اللدنيّ للخاصة!

وقرّروا أن هذا العلم اللدنيّ (الإلهام) أعلى من الوحي؛ لأن الوحي بواسطة الملك والرسول، أما الإلهام فهو من الله للوليّ مباشرة! حتى قال بعضهم: حدّثني قلبي عن ربي^(٣)!

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٤٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤٥/١٣).

(٣) ينظر: «تلبيس إبليس» (ص: ٣٢٩)، و«فضائح الصوفية» (ص: ٣٢).

ومرَّ أحدهم بمجلس من مجالس الحديث، والطالب يقرأ: حدثنا عبد الرزاق، فقال: أنتم تأخذون دينكم عن عبدالرزاق، وأنا آخذه من الرزاق! ولا شكَّ في ضلال هؤلاء وانحرافهم.

قال الإمام ابن القيم رحمته الله: «وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما: فهو من لدن النفس والهوى والشيطان، فهو لدني، لكن من لدن مَنْ؟! وإنما يُعرف كون العلم لدنيًا رحمانيًا بموافقته لما جاء به الرسول صلوات الله وسلامته عليه عن ربّه - عز وجل -»^(١).



(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٤٦).

المقطع السادس

من قول الله - تعالى - : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي
الْقُرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، إلى قوله - جَلَّ ذِكْرُهُ - : ﴿فَمَنْ
كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].



امسح الرمز
أو اضغط
للاستماع



المقطع السادس

- ١ الوقفة الأولى: قصة ذي القرنين
- ٢ الوقفة الثانية: عرض جهنم
- ٣ الوقفة الثالثة: نفي السمع والبصر
- ٤ الوقفة الرابعة: كلمات الله



الوقفة الأولى: قصة ذي القرنين

ذو القرنين ملك صالح من ملوك الأرض، طاف الأرض لنشر دين الله وإقامة العدل، ونصرة المظلوم، وكان في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام. قيل: إنه نبي، وقيل: ملك من الملائكة، والأظهر - وعليه الأكثر - أنه ملك من الملوك. قال مجاهد رحمته الله: «مَلَكُ الْأَرْضِ - مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا - أَرْبَعَةُ نَفَرٍ: مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ، فَالْمُؤْمِنَانِ: سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ وَذُو الْقَرْنَيْنِ، وَالكَافِرَانِ: بَخْتَنْصَرُ وَنَمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ، لَمْ يَمْلِكْهَا غَيْرَهُمْ»^(١).

وذكر الأزرق وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل عليه السلام، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام^(٢)، والله أعلم. وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه مَكَّنْ لَهُ فِي الْأَرْضِ، وَمَنْ أَعْظَمَ التَّمَكِينَ أَنَّهُ مَلِكُ الدُّنْيَا، وَدَانَتْ لَهُ الْمُلُوكُ كُلُّهَا. وَأَعْطَاهُ قُوَّةَ وَقْدَرَةٍ فِي التَّصْرِيفِ. قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، والسبب: ما يتوصل به إلى المقصود. فأعطاه الله وسيلة إلى الأشياء من: علم، أو قدرة، أو آلة، ونحو ذلك، فمكَّن وأُيِّدَ بأسباب عظيمة كثيرة.

وزعم بعضهم أنه: الإسكندر المقدوني باني الإسكندرية، وهذا غير صحيح، كما حققه أهل العلم - كابن تيمية وابن القيم وابن حجر - من وجوه^(٣):

(١) «تفسير الطبري» (٤/ ٥٧١).

(٢) ينظر: «أخبار مكة» (١/ ٧٤).

(٣) ينظر: «جامع المسائل»، لابن تيمية (ص: ٢٨٦)، و«إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان»، لابن القيم (٢/ ١٠٢٧)، و«فتح الباري»، لابن حجر (٦/ ٣٨٢).

١ ذو القرنين كان في زمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والإسكندر في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبينهما أكثر من ألفي سنة.

٢ ذو القرنين كان مسلماً، والإسكندر كان كافراً.

٣ كان ذو القرنين من العرب، وأما الإسكندر فهو من اليونان.

وذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى طرفاً من أخباره هنا في ثلاثة أحداث:

الحدث الأول: عند مغرب الشمس.

قال الله - تعالى - : ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا ۗ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۗ﴾ (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۗ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ ۗ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿﴾ [الكهف: ٨٥-٨٨].

يخبر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ ذَا الْقُرْنَيْنِ سَلَكَ طَرِيقًا أَوْصَلَهُ إِلَىٰ أَقْصَىٰ جِهَةِ الْمَغْرِبِ عَلَىٰ حَافَةِ الْبَحْرِ، فَرَأَى الشَّمْسَ كَأَنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَارَّةٍ ذَاتِ طِينٍ أَسْوَدٍ - وَهَذَا بِحَسَبِ مَنْظَرِهِ، وَلَيْسَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ -، وَوَجَدَ هُنَاكَ قَوْمًا مُسْتَحْقِينَ لِلْعَذَابِ، بِسَبَبِ كُفْرٍ أَوْ فِسَادِ عَمَلٍ، فَقِيلَ لَهُ: إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ هَؤُلَاءِ بِالْقَتْلِ أَوْ بغيره، وَإِمَّا أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِمْ.

قال ذو القرنين: أَمَّا مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَصْرَّ بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ؛ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا عَظِيمًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

والإتيان بحرف الاستقبال في قوله - تعالى - : ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾، يشير إلى أنه سيدعوه إلى الإيمان أولاً، فإن أصرَّ على الكفر عذَّبه.

وأما من آمن منهم بالله وعمل عملا صالحا فله الجنة؛ جزاءً على حسن عمله، وسنقول له من أمرنا ما فيه رفق ولين. وهذا الحوار المختصر بينه وبين أولئك القوم انتهى الحدث الأول.

الحدث الثاني: عند مطلع الشمس.

قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٨٩-٩١].

يخبر الله سبحانه وتعالى أن ذا القرنين سلك طريقا مغايرة إلى جهة الشرق حتى وصل أقصى الشرق وانقطع العمران، فأصبح كأنه في المكان الذي تطلع منه الشمس. ولما وصله وجد الشمس تطلع على قوم ليس لهم بناء يستترهم، ولا شجر يظلمهم من الشمس.

ولم يذكر الله خبرا مما جرى له هناك، لكنه بيّن أن علم الله قد أحاط بتفاصيل ما لديه من القوة والسلطان والأسباب العظيمة حيثما حل وارتحل.

الحدث الثالث: بين السدين.

قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءآتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءآتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا

﴿٩٦﴾ فَمَا أَسْطَلْعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَتَلْعُوا لَهُ وَنَقَبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَدُّ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿الكهف: ٩٢-٩٨﴾.

ثم سار ذو القرنين طريقا آخر بين المشرق والمغرب إلى جهة الشمال، حتى وصل إلى جبلين بينهما ثغرة، وجد من دونهما قوما لا يكادون يفهمون كلام غيرهم.

وفي قراءة متواترة: ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يُفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]، أي: لا يفهمون غيرهم كلامهم.

لكنَّ ذا القرنين صاحبُ مُلكٍ عظيم، فأقدره الله على التفاهم معهم إما بنفسه أو بمرجمين، وقال بعضهم: ربما تفاهم معهم بلغة الإشارة، والله أعلم^(١).

ولما رأى أولئك القوم علامات القوة والصلاح فيه سأله حاجتهم، فقالوا: يا ذا القرنين، إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض - بما يقومون به من القتل والتخريب وغيرهما -، فهل نجعل لك مالا على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزا؟

فقال ذو القرنين: ما رزقنيه ربي من الملك والسلطان خير لي مما تعطونني من مال، فأعينوني برجال وآلات أجعل بينكم وبينهم حاجزا. ثم بدأ التخطيط والعمل لهذا المشروع العظيم.

قال لهم: أحضروا قطع الحديد، فأحضروها، فطفق يبني بها ويصُفُّها بين الجبلين، حتى إذا ساوى بين الجبلين بنائه، وسدَّ الثغرة بهذا البناء العظيم = قال للعُمَّال: أشعلوا النار على هذه القطع، حتى إذا احمرت قطع الحديد،

(١) ينظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٣١٩).



قال: أحضروا نحاسًا مذابا، فصبّه عليه، فاستحکم السدُّ بهذا الحديد الصُّلب الذي ألبس بالنُّحاس المذاب، فصار في غاية المتانة والصلابة. فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا عليه؛ لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن يثقبوه من أسفله لصلابته وعرضه.

فردّ ذو القرنين النعمة إلى الله سبحانه وتعالى، وقال: هذا السدُّ رحمةٌ من ربي يحول به بين يأجوج ومأجوج والإفساد في الأرض، ويمنعهم منه، فإذا جاء الوقت الذي حدّده الله سبحانه وتعالى لخروجهم - قبيل قيام الساعة - صيرّه مستويًا بالأرض، وكان وعد الله - بتسويته بالأرض، وبخروج يأجوج ومأجوج - ثابتًا لا خُلف فيه.

وهكذا أطبق عليهم ذو القرنين في سجن محكم، وسد منيع، وأراح الأرض وأهلها من شرهم وفسادهم، ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا، وإلى أجل معلوم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «لا يُعرف على وجه الأرض بناءً أجَلٌ منه، ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم»^(١).

ولعلي أشير هنا إلى مسألتين:

الأولى: مَنْ هم يأجوج ومأجوج؟

يأجوج ومأجوج قبيلتان عظيمتان كافرتان من ذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَام^(٢)، تعيشان في الجهة الشرقية من الأرض. وهم أصحاب قوة وهمجية وإفساد، مع كثرة كاثرة في العدد.

(١) «البداية والنهاية» (٢/١١١).

(٢) نص الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في «البداية والنهاية» (١٩/٢٣٨) أنهم من الترك، وقال (١٩/٢٣٩): «وهم من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَام، من سلالة يافث بن نوح، وهو أبو الترك».



ولا نعلم خبرا صحيحا في صفاتهم الخلقية على وجه التحديد.
 قال ابن كثير رحمته الله: «من زعم أنهم أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدا،
 فمنهم من هو كالنخلة السحوق، ومنهم من هو غاية في القصر، ومنهم من
 يفترش أذنا من أذنيه ويتغطى بالأخرى = فكلُّ هذه أقوال بلا دليل، ورجم
 بالغيب بغير برهان، والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم»^(١).
 الشاهد أنهم موجودون، والسدُّ حقيقةٌ لا خيال، وهم يحاولون نقبه
 كل يوم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَنَّهُ قَالَ فِي السَّدِّ: «يَخْرِقُونَهُ
 كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَخْرِقُونَهُ قَالَ الَّذِي عَلِمَهُمْ: ارْجِعُوا، فَسَتَخْرِقُونَهُ
 غَدًا، فَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَأَشَدِّ مَا كَانَ. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مُدَّتَهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ
 عَلَى النَّاسِ، قَالَ الَّذِي عَلِمَهُمْ: ارْجِعُوا، فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ،
 وَاسْتَنْتَى - أَي قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ - قَالَ: فَيَرْجِعُونَ، فَيَجِدُونَهُ كَمَا يَنْتَهُ حِينَ
 تَرَكَوهُ، فَيَخْرِقُونَهُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ»^(٢).

وحدث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أمرٌ مثير يتعلق بهذا السد العظيم، وهو ما
 أخبرت به أمُّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، قالت: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ
صلى الله عليه وسلم فَرِعَا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتَحَ الْيَوْمَ
 مِنْ رَدْمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا،
 قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟
 قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ»^(٣).

(١) «البداية والنهاية» (١٣٠/٢).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

الثانية: الخروج العظيم.

يخرج الدَّجَالُ في آخر الزمان، وفتنته من أعظم الفتن، ويمكن في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وسائر أيامه كأيام الناس هذه.

ويكون هلاكه على يد عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أشرط الساعة الكبرى.

وبعد هلاك الدجال، يأذنُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَدَثٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَسِيمٍ، حَيْثُ يَنْدُكُ السُّدُّ الْمَنْعِيُّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ، وَيُخْرِجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بَعْدَ سَجْنٍ طَوِيلٍ.

وخروجهم علامة ثالثة من علامات الساعة الكبرى.

فيسيحون في الأرض وهم كثرة كاثرة، حيث يمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء.

وتكون أحداثٌ، حتى يدعو عيسى رَبَّهُ، فيستجيبُ له، ويصبحون موتى، لا يبقى منهم أحد، وعند ذلك يتفرغ عيسى للمهمة الكبرى التي أنزل من أجلها، وهي تحكيم شريعة الإسلام، فتحلُّ البركاتُ في الأرض^(١).

وخروج يأجوج ومأجوج حقيقة قرآنية، ومعجزة نبوية، ليس روايةً خيالية، ولا مجملَةً فلسفية، بل هو حدثٌ عظيم يكون عند قرب قيام الساعة.

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٩٣٧).

وبحيرة طبرية بحيرة عذبة المياه تقع في شمال فلسطين بين منطقة الجليل وهضبة الجولان، وبلغ طولها واحدا وعشرين كيلو مترا، وأقصى عرض لها ثلاثة عشر كيلو مترا، وتبلغ مساحتها ستة وستين ومئة كيلو مترامربعا تقريبا. ينظر: «موسوعة ويكيبيديا»، على الشبكة العنكبوتية.

ولا يقدح في إيماننا بذلك ما يقال: أين هم الآن؟ وأين سدُّهم؟ فإنَّ من أخصِّ صفات المؤمن: الإيمانَ بالغيب .. والإنسانُ مهما ارتفعَ بعلمه يظلُّ ناقصاً وقاصراً بقصوره البشري، ونحن نشهد اليوم هذا القصور، حيث تستمرُّ الاكتشافاتُ الأرضية الجديدة، ويتعرفُ العلماء على ما لم يشهدوه من قبل، بل ما يزال جزء من الأرض غامضاً محيِّراً، في أجزاءٍ من القطبين، وأعماق المحيطات، وتُفقد الطائرات والسفن في البحار والمحيطات ولا يعثرون لها على أثر، رغم التقدم التقني، وبذلهم الجهود المضنية في هذا السبيل، الأمر الذي يؤكد لك العجز البشري مهما بلغ من العلم والفهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَخْفَى مَكَانَهُمْ عَنِ النَّاسِ إِلَّا لِحِكْمَةِ أَرَادَهَا.

الفائدة المسلكية هنا: فضيلة الملك الصالح، والسعي في دحر المفسدين وكف شرهم، والأخذ بالأسباب المادية والعملُ بجِد، مع ردِّ النعمة إلى مُسَدِّهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الوقفه الثانية: عرض جهنم

قال الله - تعالى -: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۙ﴾ وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿الكهف: ٩٩-١٠٠﴾.

وهذا مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة، وعرضات المحشر، حين تبرز جهنم للكافرين، فيشرفون عليها ويعلمون أنها مُعدَّة لهم، فيحصل لهم عند مشاهدتها من الفزع والروع ما لا يوصف. قال - تعالى -: ﴿وَبُرِّزَتْ

الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» [الشعراء: ٩١]، وقال - سبحانه - : «وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى» [النازعات: ٣٦]، وقال - جلّ ذكره - : «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١٣﴾ وَجِئْنَا يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» [الفجر: ٢٢: ٢٣].

وقال - تعالى - : «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ» [الأحقاف: ٢٠]، قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «عُلِمَ من هذه الآيات: أن النار تُعْرَضُ عليهم ويُعْرَضُونَ عليها؛ لأنها تُقَرَّبُ إليهم ويُقَرَّبُونَ إليها»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُومَهَا»^(٢). وهذا مشهد من مشاهد الحشر، كما قال - تعالى - : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا» [الكهف: ٩٩].

وسبق الكلام على الحشر وما يتصل به من مشاهد يوم القيامة. وينبغي التفريق بين العرض على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعرض جهنم. فالعرض على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هو عرض العباد على ربهم في موقف الفصل والقضاء لا تخفى منهم خافية.

وعرض جهنم سبق بيانه، وكلاهما يكونان بعد الحشر إلى أرض الموقف. وعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(٣).

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٣٤٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٤٢).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦).

الوقفه الثالثة: نفي السمع والبصر

قال الله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

وهذا وصف للكافرين بأن أعينهم كانت مُغَطَّاةً محجوبة عن النظر في آيات الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وكانوا لا يطيقون سماع آيات الله ﷻ سماعَ منتفع، وذلك للختم والغشاوة، قال الله - تعالى - : ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً﴾ [البقرة: ٧].

ونظير هذا قوله - تعالى - : ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقوله - سبحانه - : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

اعلم أن البصر في القرآن يأتي على معنيين:

الأول: بصر حقيقي (بصر العين).

ومعناه: إدراك الأشياء المحسوسة بواسطة العين.
كما في قوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]، وقال - سبحانه - : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

والثاني: بصر معنوي (بصر القلب).

ومنه قول الله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].



وَيُسَمَّى: البصيرة، ويراد بها: قوة في القلب تُدركُ بها المعقولات على حقيقتها. ويصاب البصر بالطبع والغشاوة، قال - تعالى -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]، وقال - سبحانه -: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً﴾ [البقرة: ٧]. والطبع والغشاوة والختم عقوبات لهؤلاء المكذبين بسبب إصرارهم وعنادهم وتماديهم في الكفر، فتذهب البصائر، وتفقد الأبصار ثمرتها وفائدتها.

قلت: وتحتل الآية المعنيين جميعاً؛ البصر الحقيقي والمعنوي، فقوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]، أي: كانت أعينهم في غطاء عن البصر الحقيقي النافع في آيات الله الكونية، وأدلة توحيده. وكانت أعين قلوبهم في غطاء عن آيات الله الشرعية، فلا تفهمها وتهتدي بها. واعلم أن السمع في القرآن يأتي على معنيين - أيضاً -:

الأول: سمع حقيقي (سمع الأذن).

وهو إدراك الأصوات بواسطة الأذن. ومنه قول الله - تعالى -: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَرَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

والثاني: سمع معنوي (سماع القلب).

ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَأَذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وهذه الآية: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

واجتمع المعنيان في قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، أي: ولا تكونوا - أيها المؤمنون- مثل المنافقين والمشركين الذين إذا تليت عليهم آيات الله = قالوا: سمعنا بأذاننا، وهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ، فينتفعوا بما سمعوه.

الفائدة المسلكية هنا: أن نعمل هذه الحواس (السمع والبصر) فيما يريد ربنا منها: سماع العظة والاعتبار، ونظر الاعتبار والتفكير، اللذين يثمران زيادة الإيمان واليقين.

الوقفه الرابعة: كلمات الله

قال الله - تعالى - : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].
وكلمات الله نوعان:

الأولى: الكلمات الكونية.

وهذه الكلمات الكونية القدرية، هي الكلمات التي يدبر الله - تعالى - بها أمر الخلائق، والتي ذكرها - عز وجل - في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

قال أبو التياح: سأل رجل عبد الرحمن بن حنبلٍ رضي الله عنه كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كادته الشياطين؟ قال: جاءت الشياطين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأودية، وتحدرت عليه من الجبال، وفيهم شيطان معه شعله

نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يَحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْ! قَالَ: «مَا أَقُولُ؟». قَالَ: قُلْ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَذَرًّا وَبَرًّا، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ». قَالَ: فَطُفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ، وَهَزَمَهُمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - (١).

فكلمات الله الكونية: هي مقاديره وأقضيته، وهي نافذة لا يتجاوزها أحد: برًّا كان، أو فاجرا.

والثانية: الكلمات الشرعية.

وهي الوحي الذي أوحاه الله إلى رسله بما شرع لعباده. وهذه الكلمات الشرعية الدينية قد يتجاوزها الفجار، فيعصون أوامر الله، ويرتكبون نواهيه، التي بينها في كتابه الكريم. وكلام الله صفة ذاتية فعلية: ذاتية باعتبار أصلها، وفعلية باعتبار آحادها.

وقد ثبت أن الله كلم ثلاثة من أنبيائه ورُسُلِهِ من وراء حجاب، وهم: آدم، وموسى، ومحمد - عليهم الصلاة والسلام -.

وكلمات الله لا نفاذ لها كما دلت الآية: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، يعني: لو كان ماء البحر حبرًا للأقلام التي يكتب بها كلام الله، لنفد ماء

(١) حسن: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٦٠١)، وأحمد (١٥٤٦٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٩٥).

البحر قبل أن تنفذ كلمات الله، ولو جننا بمثل البحر بحارا أخرى مددا له. وجاء هذا المعنى - أيضا - في قوله - تعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [القمان: ٢٧].

والمعنى: لو أن أشجار الأرض كلها صارت أقلامًا، وصار البحر حبرًا لها، ويمد بسبعة أبحر أخرى، وكتب بتلك الأقلام وذلك الحبر كلمات الله، لتكسرت تلك الأقلام، ولنقد ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله التامة التي لا يحيط بها أحد.

الفائدة المسلكية هنا: تعظيم الله، وتعظيم صفاته، ومنها كلامه الذي لا ينفد. وأن يوقن العبد أن الملاذ من الشدائد، والأمن من المخاطر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيتوجه إليه بكلماته القدرية الكونية ويعتصم به من كل شر ومخوف. ويتمسك بكلماته الشرعية التي هي شرعه ودينه، ويحرص على تعلّمها وفهمها والعمل بها، والدعوة إليها.

وهذا ما تيسر إيرادُه من وقفات حول هذه السورة العظيمة، ولا شك أن وراءها ما هو أعظم وأكثر.. نسأل الله أن يرزقنا فهم كتابه، والانتفاع به، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.



الفهرس

٤ مقدمة

٥ لماذا بدأنا بسورة الكهف؟

٧ المقطع الأول

٩ الوقفة الأولى: الحمد لله

٩ الوقفة الثانية: أوصاف القرآن

١٠ الوقفة الثالثة: تنزيه الله عن النقائص

١١ الوقفة الرابعة: العبرة بالعمل دون الأثر

١٢ الوقفة الخامسة: التحذير من فتنة الدنيا

١٣ الوقفة السادسة: قصة الكهف

١٧ الوقفة السابعة: التدرُّب على تنمية ملكة الاستنباط

الوقفة الثامنة: توجيه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ

أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]..... ١٧

١٩ المقطع الثاني

٢١ الوقفة الأولى: الانشغال بالعلم النافع



٢٤..... الوقفة الثانية: التحرُّز في الاستفتاء

٢٥..... الوقفة الثالثة: تعليق الأمور المستقبلية بالمشيئة

٢٩..... الوقفة الرابعة: الله ولي الذين آمنوا

٣٢..... الوقفة الخامسة: القرآن زاد المؤمن

٣٣..... الوقفة السادسة: الصحبة الصالحة

٣٤..... الوقفة السابعة: الغفلة بوابة الضياع

٣٧..... المقطع الثالث

٣٩..... الوقفة الأولى: طغيان الغنى

٤٢..... الوقفة الثانية: حقيقة الدنيا

٤٣..... ومضات حول هذه الوقفة

٤٧..... الوقفة الثالثة: حال الجبال في يوم الأهوال

٤٩..... الوقفة الرابعة: الدار الآخرة.. مشاهد وأحداث

٤٩..... أولاً: النفخ في الصور

٥٠..... ثانياً: البعث

٥٠..... ثالثاً: الحشر والموقف

٥٠..... رابعاً: الشفاعة العظمى

٥١..... خامساً: العرض، والحساب، والكتب

٥٢..... أحوال الناس في الحساب



المقطع الرابع..... 00

الوقفه الأولى: شذرات في قصة آدم وإبليس ٥٧

المسألة الأولى: من هم الملائكة؟ ٥٧

المسألة الثانية: من هو إبليس؟ ٥٧

المسألة الثالثة: هل إبليس من الجن، أم من الملائكة؟ ٥٩

المسألة الرابعة: حقيقة سجود الملائكة لآدم ٦٠

الوقفه الثانية: الهداية ٦١

المسألة الأولى: نعمة الهداية ٦١

المسألة الثانية: أقسام الهداية ٦٢

المسألة الثالثة: أسباب الهداية ٦٣

المسألة الرابعة: موانع الهداية ٦٤

الوقفه الثالثة: الاستهزاء بالدين ٦٦

المسألة الأولى: معنى الاستهزاء، وضابطه ٦٧

المسألة الثانية: حكم الاستهزاء بالله ورُسُله ودين الإسلام ٦٧

المسألة الثالثة: واجب المسلم عند سماع الاستهزاء ٦٧

المسألة الرابعة: حكم الاستهزاء بالعلماء وسائر المسلمين ٦٨

الوقفه الرابعة: خطر الإعراض عن آيات الله ٦٩

المسألة الأولى: معنى الإعراض، ووروده في القرآن ٦٩

المسألة الثانية: صور الإعراض ٧٠

- ٧١ المسألة الثالثة: أسباب الإعراض
- ٧٢ المسألة الرابعة: أنواع الإعراض
- ٧٢ المسألة الخامسة: عقوبة الإعراض

٧٥ المقطع الخامس

- ٧٧ الوقفة الأولى: أطراف القصة
- ٧٩ الوقفة الثانية: أحداث القصة
- ٧٩ الحلقة الأولى: قبل اللقاء
- ٨٢ الحلقة الثانية: بعد اللقاء
- ٨٢ الحدث الأول: خرق السفينة
- ٨٣ الحدث الثاني: قتل الغلام
- ٨٣ الحدث الثالث: إقامة الجدار
- ٨٥ الوقفة الثالثة: الفوائد والعبر
- ٨٧ تنبيه: ليس الخضر بأفضل من موسى عليهما السلام
- ٩١ ضابط العلم اللدني

٩٥ المقطع السادس

- ٩٧ الوقفة الأولى: قصة ذي القرنين
- ٩٨ الحدث الأول: عند مغرب الشمس
- ٩٩ الحدث الثاني: عند مطلع الشمس

- الحدث الثالث: بين السدين ٩٩
- الوقفة الثانية: عرض جهنم ١٠٤
- الوقفة الثالثة: نفي السمع والبصر ١٠٦
- البصر يأتي في القرآن على معنيين ١٠٦
- السمع يأتي في القرآن على معنيين ١٠٧
- الوقفة الرابعة: كلمات الله ١٠٨
- الفهرس** III

